الظاهر بيبرس

من مشاهير أعلام المسلمين

الظاهر بيبرس

لم يكن بيبرس[1] هو أول سلاطين الدولة المملوكية، بل سبقه إلى

(١) الملك الظاهر بيبرس البندقداري هو: بيبرس بن عبد الله، ولد في حدود العشرين وستمائة بصحراء أجبقلاق، وأخذ من بلاده صغيراً وبيع بدمشق؛ فنشأ بها عند العماد الصائغ - على ما قيل - ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري الصالحي، وبقي في ملكه إلى أن قبض الملك الصالح على أيدكين المذكور وصادره، وأخذ بيبرس هذا فيما أخذه منه، وذلك في شهر شوال سنة أربع وأربعين وستمائة. وأعتقه الملك الصالح نجم الدين، وقدمه على طائفة من الجمدارية؛ لما رأى من فطنته وذكائه واستمر بيبرس على ذلك إلى أن مات الملك الصالح نجم الدين أيوب، وملك بعده ابنه الملك المعظم توران شاه في سنة سبع وأربعين وستمائة. ثم قتل توران شاه في سنة ثمان وأربعين وستمائة، وأجمع الأمراء على إقامة الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي، وولوه السلطنة بعد شجر الدر - أم خليل الصالحية - ولما قتل المعز الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار، ركب بيبرس هذا بالبحرية، وقصدوا قلعة الجبل. فلما لم ينالوا مقصودهم، خرجوا من القاهرة مجاهرين بالعداوة للملك المعز أيبك التركماني، قاصدين الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق، وهم: بيبرس هذا، وبلبان الرشيدي، وعز الدين أزدمر السيفي، وسنقر الرومي، وسنقر الأشقر، وبدر الدين بيسرى، وسيف الدين قلاوون الألفي وبلبان السنقري وغيرهم.

فلما شارفوا دمشق سير إليهم الملك الناصر صاحب دمشق يطيب قلوبهم ويستدعيهم إليه؛ فأرسلوا إليه الأمير فخر الدين المقرئ يستحلفه لهم؛ فحلف؛ فاطمأنوا ودخلوا دمشق؛ فأكرمهم الملك الناصر، وأطلق لبيبرس هذا بثلاثين ألف درهم، وثلاثة قطر بغال، وثلاثة قطر جمال، وخيل، وملبوساً. وفرق أيضاً في بقية الجماعة الأموال والخلع - على قدر مراتبهم. فلما بلغ الملك المعز ذلك كتب إلى الملك الناصر يحذره منهم، ويغريه بهم؛ فلم يصغ الملك الناصر لذلك، إلى أن استشعر بيبرس من الملك الناصر بالغدر، توجه بمن معه إلى الكرك؛ فجهز صاحبها الملك المغيث عسكره معه؛ فقدم إلى مصر، وعدة من معه ستمائة فارس. وخرج عسكر الديار المصرية؛ فتلقاه، وأراد الملك الظاهر كبسهم؛ فوجدهم على أهبة؛ فالتفت العسكر المصري عليهم وقاتلهم

فانكسر عسكر بيبرس، ولم ينج إلا هو بنفسه وقلاوون وبيسرى وبيليك الخازندار.
وعاد بيبرس إلى جهة الكرك؛ فجاءه جماعة من أمراء مصر، واجتمعوا بيبرس والملك المغيث صاحب الكرك بظاهر غزة؛ فقويت شوكتهما، وعادوا إلى الصالحية، ولقوا عسكر مصر ثانياً؛ فاستظهر عسكرهما أولاً، ثم عادت الكرة عليهما، وهرب الملك المغيث، ولحقه بيبرس، وأسر أولئك الأمراء الذين كانوا حضروا إليه؛ فقتلوا جميعاً صبراً - ما خلا الأمير بيليك الخازندار؛ فإن جمال الدين الجوكندر شفع فيه؛ فخير بين المقام والذهاب؛ فاختار الذهاب إلى أستاذه.

ثم إلى الملك المغيث حصلت بينه وبين بيبرس وحشة أوجبت مفارقته إياه، وعوده إلى الملك الناصر صاحب دمشق بعد أن استحلفه على أن يقطعه خبز مائة فارس؛ فأجاب الملك الناصر لذلك.

وكان قدوم بيبرس في هذه المرة على الملك الناصر، في شهر رجب سنة سبع وخمسين وستمائة، ومعهم الجماعة الذين حلف لهم الناصر وهم: أيتمش السعدي، بيسرى الشمسي، وطيبرس الوزيري، وبلبان الرومي، وآقوش الرومي، وكشتغدي الشمسي، وأيدغميش الحلبي، ولاجين الدرفيل، وكشتغدي الشرقي، وأيبك الشيخي، وبيبرس خاس ترك الصغير، وبلبان المهراني، وسنجر الهمامي، وسنجر الباشقردي، وأيبك العلائي، ولاجين الشقيري، وبلبان الأقسيسي، وعلم الدين سلطان الألد كزى؛ فأكرمهم الملك الناصر، ووفى لهم بما حلف.

فلما ورد الخبر بأن الملك المظفر قطز وثب على ابن أستاذه، حرض الملك الناصر بيبرس على قصد الديار المصرية، فلم يجبه الناصر، فقال بيبرس: فقد منى على أربعة آلاف فارس أقوم بها إلى شط الفرات أمنع التتار من العبور إلى الشام، فلم يمكنه الملك الصالح صاحب حمص؛ لباطن كان له مع التتار. ثم إن بيبرس أرسل فاستحلف الملك المظفر قطز، وفارق الملك الناصر صاحب دمشق، ودخل إلى القاهرة في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وستمائة؛ فركب الملك المظفر قطز للقائه، وأنزله في دار الوزارة، وأقطعة قليوب لخاصته، وصار عنده خصيصاً إلى أن خرج الملك المظفر قطز لملتقى التتار، سير بيبرس هذا في عسكر؛ ليتجسس أخبارهم؛ فأول من وقعت عينه عليهم ناوشهم القتال؛ فلما كسر التتر تبعهم يقتص آثارهم، ويقتل من وجد منهم إلى حمص. ثم عاد بيبرس؛ فوافى المظفر قطز بدمشق؛ فلما توجه المظفر إلى نحو الديار المصرية، عاد بيبرس هذا صحبته بعد أن اتفق مع جماعة ممن وافقه على قتل الملك المظفر قطز؛ فقتلوه في سادس عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة.

فدخل القاهرة؛ وملك قلعة الجبل، وتلقب بالملك القاهر أولاً؛ فأشار الوزير زين الدين على السلطان بتغيير لقبه - وكان فاضلاً - وقال: ما لقب أحد بالقاهر فأفلح، لقب به: القاهر بن المعتضد، فلم تطل أيامه وخمل وهمل، ولقب به القاهر ابن صاحب

ذلك المنصب آخرين قد مهدوا لقيام دولة قوية لا سيما عندما تغلبوا على معظم أبناء البيت الأيوبي بالشام، ثم بينوا للعالم مقدرتهم الحربية بالانتصار على المغول في عين جالوت، وأحاطوا أنفسهم منذ قيام دولتهم في مصر والشام بآيات الولاء للخلافة العباسية حتى اعترف الخلفاء بسلاطينها اعترافًا تامًّا، فأكسبهم ذلك الاعتراف صفة شرعية للحكم وأحاطهم بحماية تحميهم ممن عسي يفكر في انتزاع السلطة منهم[1]، وبالرغم من ذلك فيعد بيبرس هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك التي ظلت تقوم بدور المدافع عن الإسلام وحضارته على امتداد ما يزيد عن القرنين ونصف من الزمان، فقد كان بيبرس أول من أرسى قواعد وأسس الملك المملوكية، أضف إلى ذلك مشاريعه العملاقة خارجيًّا مثل: محاولة القضاء على الوجود الصليبي في الشام، ومحاولة توحيد الجبهة الإسلامية في مواجهة أخطار الخارجية، وداخليا مثل: الإصلاحات الكبيرة التي أدخلها على البلاد، ومحاولات التقرب إلى المصريين وغيرها من الأعمال التي جعلت منه بطلاً في عيون عامة الناس وخاصتهم فانطلقوا ينسجون حوله هالة من البطولة والشجاعة في قصصهم الشعبي، وجعلوا منه رمزًا للإسلام والمسلمين.

بعد أن تمت البيعة السلطانية لبيبرس في المعسكر السلطاني بالصالحية دخل بيبرس - والأمراء الذين شاركوه قتل المظفر قطز قلعة الجبل - وكان دخوله القلعة وجلوسه على كرسي السلطنة في التاسع عشر من ذي القعدة.

فلما طلع النهار نادى المنادي في الناس " ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر بيبرس، فدخل على الناس من

الموصل؛ فسم؛ فأبطل السلطان اللقب الأول ولقب بالملك الظاهر، وكتب بذلك إلى جميع الأعمال، أبو المحاسن بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ١ / ٢٩١ - ٢٩٤.

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص١٧٧.

ذلك غمّ شديد ووجل عظيم، خوفاً من عود البحرية إلى ما كانوا عليه من الجور والفساد وظلم الناس [١] وكان الناس قد خرجوا لاستقبال قطز الذي كان من مماليك المعز أيبك التركماني، ولم يكن من المماليك البحرية أي مماليك الصالح أيوب [٢].

واستهل بيبرس عهده بالتقرب إلى المصريين بأن ألغي كافة الضرائب والمكوس التي كان قطز قد افترضها على الناس من أجل تمويل الحرب ضد المغول، وكانت تلك الضرائب بواقع دينار على كل فرد في مصر، كما استولى على ثلث إيراد الزكاة، وثلث قيمة التركات التي مات عنها أصحابها من غير المماليك، وكان وقع هذه الإجراءات على نفس المصريين مبهجًا؛ إذ زينوا الطرقات والأسواق ابتهاجًا بذلك [٣].

وكان على بيبرس أن يواجه المتاعب والقلاقل الداخلية والخارجية في سبيل تدعيم مركزه في سدة الحكم.

والحقيقة أنه لم تكن جميع الأطراف راضية عن حكم الظاهر بيبرس ولذلك نجد أنه قد قامت ضده معارضة قوية مناوئة لحكمه متمثلة في ثورتين تكادا أن تكونان متزامنتين، كانت إحداهما في القاهرة والأخرى في دمشق، وهذه المعارضة وإن كانت تهديدًا مباشرًا لسلطة بيبرس؛ فإن نجاحه في القضاء عليها يعد تثبيتًا وتدعيمًا ليس لسلطته فقط بل لدولة المماليك جميعًا.

الثورة الأولى: وكان سبب هذه الثورة هو الاعتراض على قتل قطز، والأنفة مما فعله بيبرس دون أن يستشير من تنبغي استشارته، وكان قائد هذه الثورة هو نائب دمشق سنجر الحلبي[٤] أحد أمراء

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١ /١٤١.
(٢) المقريزي، السلوك، ١/ ٤٣٧.
(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٣٨ - ٤٣٩، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٨٦.
(٤) سنجر الحلبيّ: أحد المماليك الصالحية، ترقّى في الخدم إلى أن ولاّه الملك المظفر سيف

المماليك - في أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م، والذي ساءه كثيرًا اغتيال قطز، ورفض الاعتراف بسلطة قاتله بيبرس، ولم يكتف بذلك بل بادر بإعلان نفسه ملكاً على دمشق في ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ، واتخذ لنفسه لقب الملك المجاهد، وركب بشعار السلطنة، وضرب السكة باسمه.

ولم تستطع رسل بيبرس وكتبه من إقناع الثائر بلزوم الطاعة، فقرر بيبرس أن يجرد جيشًا للقضاء على تلك الثورة قبل أن تستفحل، حيث عاد الجيش بنائب دمشق مقرنًا في الأصفاد في يناير ١٢٦١ م / ١٦ صفر ٦٥٩ هـ، حيث أعتقل في قلعة الجبل بعد شهر واحد من إعلان ثورته، وولي بيبرس أستاذه علاء الدين البندقداري [١] نيابة دمشق التي انضوت منذ ذلك التاريخ تحت لوائه [١] وبذا

الدين قطز نيابة دمشق، فلما قتل قطز على عين جالوت وقام من بعده في السلطنة بالديار المصرية الملك الظاهر بيبرس، ثار سنجر بدمشق في سنة ثمان وخمسين وستمائة ودعا إلى نفسه، وتلقب بالملك المجاهد، وكان طويل القامة، مخلا بعينه اليسرى، ذكروا عنه أنه أصيب بسهم، وكان ذا بأس وشهامة، وقوة وشجاعة، وإقدام شديد.

وقيل: إنه كان في الدولة الظاهرية إذا نزل من الخدمة إلى بيته لا ينزل عن فرسه حتى يقدم له قنطارته محشوة برصاص فيلعب بها وهو راكب، ثم يأتي إلى فردة تبن فيطعنها ويشيلها من الأرض، ثم ينزل ويأخذ عمود حديد زنته قنطار فيلف به يمينًا ويسارًا، ثم يجلس على سماطه فيأكل خروفًا، مات في عاشر ذي القعدة وكان قد مرض بعد حصار قلعة الروم، فحمل في محفة إلى مصر، فمات بعد حضوره بسبعة أيام وهو في عشر التسعين وقد انحنى وبان عليه الكبر، وقيل: مات وعمره اثنان وتسعون سنة.

المواعظ المقريزي، والاعتبار، ١٨٦/٢، بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ /٢٤٥.

(١) أيدكين بن عبد الله البندقداري، الأمير علاء الدين. كان من أعيان الأمراء الصالحية، وكان الملك الظاهر بيبرس البندقداري مملوكه، اشتراه لما أن كان بحماة، ثم إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب صادر علاء الدين أيدكين هذا، وأخذ منه بيبرس في جملة ما أخذه منه، وتنقلت الأحوال بهما حتى صار بيبرس سلطاناً، والأمير علاء الدين أيدكين المذكور من جملة أمرائه، وبقي معظماً عند الملك الظاهر بيبرس؛ لحقوق سلفت، ويرعى له ما تقدم، وينعم عليه.

قضى السلطان في سرعة وعزم على إحدى الحركات الانفصالية في تاريخ السلطنة المملوكية، مما برهن على سلامة دولة المماليك وصلاحيتها للبقاء [٢].

ثم كانت هناك محاولة تمرد أخرى على سلطة بيبرس تمثلت في محاولة شمس الدين البرلي الاستقلال بحلب، ولكن الفشل كان حليفه، ولما أرسل يطلب العفو من السلطان الظاهر بيبرس كان كريمًا معه، وفي القاهرة حاول بعض الأمراء المماليك الإطاحة بالسلطان سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م وعلي الرغم من أنه تمكن من وأد هذه المؤامرة في مهدها، فإنه كان كريمًا معهم أيضا [٣].

أما الثورة الثانية الأكثر خطورة فكان زعيمها رجل شيعي يعرف بالكوراني، أظهر الزهد والورع، وسكن قبة بجبل المقطم، وتردد عليه الغلمان والركابدارية[٤] وجماعة من السودان، فأخذ يدعوهم ويحرضهم على قلب نظام الحكم المملوكي السني واستبداله

وكان أصل أيدكين هذا مملوكاً للأمير جمال الدين موسى بن يغمور، ثم انتقل إلى ملك الصالح نجم الدين أيوب؛ فرقاه وجعله بندقداره، ثم أمره على عجلون، ثم عزله، وأمسكه وصادره، واستمر أيدكين هذا على حرمته وإمرته، إلى أن مات في شهر ربيع الآخرة سنة أربع وثمانين وستمائة، ودفن بتربته بالشارع الأعظم، تجاه حمام الفارقاني بظاهر القاهرة، وكان له معرفة، ورأي، وتدبير، وسياسة، رحمه الله تعالى. الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٢، ١٨، ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ١ / ٢٣٣.

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٣٨ - ٤٣٩، ٤٤٥، ابن أيبك الدوادري، كنز الدرر، ٨/ ٦٣ - ٧٠.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٧٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٦٥ - ٤٦٦، ٤٧١ - ٤٧٦، ابن أيبك الدوادري، كنز الدرر، ٨ /٧٠، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٨٧.

(٤) الركابدارية هم الذين يحملون الغاشية بين يدي السلطان في الموكب، وهم تابعون للركاب خاناه وهو بيت الركاب الذي تكون به السروج واللجم وله موظف خاص يسمى مهتار الركاب خاناه. انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، ٤ / ٧ ن١٢. العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٧٨.

بحكم شيعي وأقطعهم الإقطاعيات وكتب لهم الرقاع، وتمخضت تلك الدعوة والدعاية عن ثورة سنة ١٢٦٠ م / ٦٥٨ هـ، فشق الثوار شوارع القاهرة ليلاً وهم ينادون: " يآل علي " وفتحوا حوانيت السيوفيين بين القصرين، وأخذوا ما فيها من سلاح، واقتحموا اصطبلات الجنود، وأخذوا منها الخيول. وهنا برهن بيبرس على أنه لا يؤخذ بهذه الطريقة، فأرسل من الجند ما يكفل الحوطة على الثوار والقبض على جميع زعمائهم، حتى إذا خمدت الثورة، أمر السلطان بصلب الكوراني وغيره من الزعماء على باب زويلة [١].

وهكذا قضى بيبرس قضاءً مبرمًا على البقية الباقية من الحركة التي ظلت تعمل على هدم السنية في مصر وغيرها منذ عهد صلاح الدين، بدليل خلو المراجع العربية من أخبار أية حركة مشابهة في مصر أو الشام، طوال العهد المملوكي، الأول والثاني سواء، وهذا الدليل بدوره يدل على مبلغ إمعان بيبرس في هدم الثورة، مما جعل توفيقه في إخمادها جديرا بأن يعتبر عاملا من عوامل تدعيم دولة المماليك [٢].

وكان القضاء على المشكلات والأخطار التي أثارتها حركات التمرد الداخلية الخطوة الأولى والهامة في سياسة بيبرس لتوطيد سلطنته في الداخل، بيد أن هذه الأخطار كانت هينة بالقدر الذي لم يكلفه من الجهد إلا قليلا. وبقي عليه أن يطفي على حكمه رداء الشرعية، ورأى الحل السديد في إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة، والحصول على تفويض من الخليفة بالحكم. وإذا كان إحياء الخلافة يأتي من جانب الدولة صاحب الفضل في وقف الخطر التتري، وصاحبة القوة اللازمة لمواجهة الخطر الصليبي؛ فإن تأييد الناس لهذه الدولة سيكون بلا حدود. وكانت تلك مناورة سياسية زكية من

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٤٠.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٧٩.

بيبرس، إذ جعل الدولة المملوكية تبدو صاحبة الفضل على العالم الإسلامي بإحيائها الخلافة العباسية [١].

وبعد جلوس بيبرس على عرش السلطنة استدعي الأمير العباسي أبو القاسم أحمد، وخرج ليتلقاه خارج القاهرة في شهر رجب ٦٥٩ هـ / يونيو ١٢٦١ م "... ومعه الوزير بهاء الدين وقاضي القضاة تاج الدين والشهود والرؤساء والقراء والمؤذنون واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل في يوم الخميس فدخل من باب النصر وشق القاهرة وكان يوماً مشهوداً، ولما كان يوم الاثنين ثالث عشر الشهر جلس السلطان والخليفة في الإيوان بقلعة الجبل وحضر الصاحب بهاء الدين وولده فخر الدين وقاضي القضاة تاج الدين والأمراء والناس على طبقاتهم وقرئ نسب الخليفة على القاضي وشهد عنده بصحته فأسجل عليه بذلك وحكم به وبويع وركب من يومه وشق القاهرة في وجوه الدولة أعيانها... ثم بويع بالخلافة في قلعة الجبل ظاهر القاهرة من الديار المصرية يوم الاثنين ثالث عشر شهر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة وأول من بايعه قاضي الديار المصرية تاج الدين عبد الوهاب بن خلف الشافعي عند ما ثبت نسبه عنده ثم بايعه الملك الظاهر والشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام والأمراء والأعيان من أولى الحل والعقد وكانت بيعته في الإيوان الكبير بالقلعة المذكورة وكان المسلمون بغير خليفة منذ قتل التتار ابن أخيه الإمام المستعصم بالله أبا أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد رحمه الله في أوائل سنة ست وخمسين مدة ثلاث سنين ونصف " [٢].

ولما تمت البيعة، قلد الخليفة المستنصر السلطان بيبرس على

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٨٨.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٩٤/١، وانظر أيضا: السيوطي، حسن المحاضرة، ١ /٤٤٨ - ٤٤٩، ابن أيبك الدوادري، كنز الدرر، ٨ /٧٢ - ٧٨، المقريزي، السلوك، ١/ ٤٤٨ - ٤٥٧.

البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار. وبعد ذلك قام جميع من حضر فبايعوا الخليفة على اختلاف طبقاتهم، ثم كتب السلطان بيبرس في نفس اليوم إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة من قبلهم للخليفة العباسي المستنصر بالله، وأن يدعي له على المنابر ثم يدعي للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما [١].

وعلى ما يبدو أن بيبرس كان عنده تصميم على إعادة الخلافة العباسية ليس إلى الوجود فقط - بعد سقوطها على يد هولاكو - بل وإعادتها إلى مقرها الأصلي في بغداد، وبدا ذلك جليًّا عندما أنفق الأموال الكثيرة في سبيل إعداد جيش الخلافة ليعود به إلى العراق واستخلاص بغداد من أيدي التتار، كما أنه خرج مع الخليفة إلى دمشق فوصلها في ذي القعدة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م، وكان ينوي أن يقوي جيش الخلافة العباسية بأن يضيف إليه أعدادًا أخرى من جند الشام، حتى غدا جيش الخلافة يزيد على عشرة آلاف فارس، ولكن وبصورة مفاجئة فتر حماس الظاهر بيبرس وتخلى عن مشروع إحياء الخلافة العباسية وإعادتها إلى مقرها الدائم في بغداد وتخلى عن الخليفة العباسي[٢]، وتركه في جمع قليل من الجنود لا يزيد عن ثلاثمائة فارس، وتركه يصارع المجهول [٣].

وسار لمواجهة التتار بقيادة قرابغا وبهادر، حيث التقوا بهم

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص١٨٤.

(٢) ذكر المقريزي أن البعض أوشى إلى الظاهر بيبرس بألا يساعد الخليفة العباسي في العودة إلى بغداد وإعلان عودة الخلافة العباسية لأنه إن فعل ذلك فربما ينقلب عليه الخليفة العباسي وينازعه النفوذ والسلطة مما جعل حماس بيبرس يفتر ويتخلى عن الخليفة العباسي وعودة الخلافة العباسية إلى بغداد. انظر: المقريزي، السلوك، ١ /٤٦٢ - ٤٦٣. وربما يكون بيبرس قد حصل على مبتغاه من الخليفة العباسي وهو الشرعية لدولته الناشئة ولم يعد لديه الحماس في استكمال مشروع الخلافة العباسية.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ /٤٦٢ - ٤٦٣، ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ١ / ٤٢٩ - ٤٣٠.

بالقرب من الأنبار في الثاني من محرم سنة ٦٦٠ هـ، ودارت بين الجانبين معركة غير متكافئة انتهت بمقتل معظم الجيش العباسي ولم ينج منهم غير الأمير أبو العباس أحمد في بضع قليل من الفرسان، أما الخليفة أبو القاسم فلم يستدل على مصيره، وإن كانت معظم الروايات ترجح موته جريحاً بعد المعركة [١].

كانت أحداث هزيمة جيش الخلافة العباسية ومقتل الخليفة المستنصر دافعاً لبيبرس أن يعيد التفكير في وضع الخلافة العباسية، إذ بدأ يفكر في جعل الخلافة والخليفة العباسي تحت عينه وسيطرته المباشرة بجعل مقرها الرئيسي في القاهرة، فتستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة، وتتجنب خطر إقامتها بعيداً في بغداد. وحرص بيبرس أن تخرج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ فأرسل يستدعي أميرًا عباسيًّا آخر لتولي الخلافة، ووقع اختياره على أبي العباس أحمد [٢] حيث عقد له في ٨ محرم ٦٦١ هـ مجلسًا عامًّا بالإيوان الكبير بقلعة الجبل كما حدث للمستنصر من قبل، وتمت مبايعته باسم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، وأخذت له البيعة من جميع طوائف الناس وخطب له على المنابر في مصر والشام [٣] ولضمان نجاح المحاولة وبقاء الخلافة العباسية في مصر إلى الأبد أرسل بيبرس فاستدعى

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣١٨، السيوطي، حسن المحاضرة، ٢ /٤٧، المقريزي، السلوك، ١ /٤٦٢ - ٤٦٣.

(٢) الحاكم بأمر الله العباسي: هو أحمد بن الحسن، الإمام الحاكم بأمر الله أبو العباس ابن الأمير أبي على الحسن بن أبي بكر بن على بن أمير المؤمنين، المسترشد بالله العباسي البغدادي.
قدم مصر، ونهض ببيعته الملك الظاهر بيبرس الصالحي، وبويع له سنة إحدى وستين وستمائة، وخطب بالناس، وكان ملازماً لداره، فيه عقل وشجاعة وديانة، وله راتب يكفيه من غير سرف. امتدت أيامه، وعهد بالخلافة إلى ولده المستكفي بالله أبي الربيع سليمان، وتوفي سنة إحدى وسبعمائة، وهو في عشر الثمانين وكانت خلافته أربعين سنة، ولم يكن له من الخلافة غير الخطبة والسكة. الكتبي، فوات الوفيات، ١ /٣٧.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٧٧ - ٤٧٩، ابن أيبك، كنز الدرر، ٨ / ٩٤ - ٩٥.

الكثير من مماليك الخليفة المستعصم (الذي قتله التتار) الذين فروا من وجه التتار إلى الحجاز، كما أحضر العديد من شيوخ عشائر العراق ليكونوا إلى جوار الخليفة العباسي الجديد، ويضفي على هذا العمل مزيدًا من الشرعية ويعطيه ترياق الاستمرارية في مصر [١].

كان إحياء بيبرس للخلافة العباسية أحد الخطوات الهامة التي دعمت مركز دولته الناشئة ليس دينيًّا فقط بل سياسيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا وثقافيًّا، ولم يتوقف عند هذا النهج، بل نجده يتخذ عدداً من الخطوات الهامة في سبيل تأكيد زعامة دولته على أقطار الخلافة العباسية، وكانت الخطوة التالية هي الإشراف على الحجاز " أصل العرب والملة، ومقر الحرمين الشريفين ومهوى قلوب المسلمين ".

والحقيقة أن الإشراف على الحجاز يعد أحد أركان السياسة المصرية على مر العصور منذ قيام الدويلات المستقلة في مصر، لأن السياسة المصرية كانت تهدف دائماً إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية وسياسية واقتصادية أهمها السيطرة على البحر الأحمر وتجارته. فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالطولونيين والإخشيديين والفاطميين، قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز، ثم سار الأيوبيون على نفس هذه السياسة الحجازية حتى لقبوا أنفسهم بلقب " خادم الحرمين "، وبقي هذا اللقب للمماليك والعثمانيين من بعدهم [٢].

وبدأت سياسة بيبرس الحجازية بعمل الإصلاحات اللازمة بالحرم النبوي الشريف وإرسال الكسوة إلى الكعبة [٣]، وإرسال

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ / ٤٠٠، المقريزي، السلوك، ١ / ٤٧٦.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٩٦.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٠٢. يقول الطرسوسي: ".. ذلك أن العرب كانت في الجاهلية تكسو الكعبة. واستمرت كسوتها بعد الإسلام، وكانت الكسوة تصنع من الحرير الأسود المرقوم بالحرير الأبيض، ثم صارت الكتابة باللون الأصفر المشعر بالذهب، وحين سقطت الدولة العباسية تولى كسوتها سلاطين المماليك واهتموا بذلك اهتماماً

الصدقات والزيت والشموع والطيب... [١]. وأخيراً أدى بيبرس فريضة الحج سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩ م، فأظهر خشوعاً وكرما لاينتهي [٢]وانتهز الفرصة لكي يجعل الخطبة في الحجاز للخليفة العباسي ثم سلطان مصر بعده [٣]. وهكذا ازداد البعد الديني وضوحا في دولة سلاطين المماليك[٤].

هذا ولم يكتف بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين، بل أمر سنة ١٢٦١ م بإرسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس، وجدد مسجد الخليل إبراهيم، عليه السلام. وأخرج ما كان في إقطاعيات الأمراء من أوقافه [٥]. كما أمر سنة ١٢٦١ م ببناء مشهد على عين جالوت عرف بمشهد النصر [٦] تخليداً لذكرى ذلك الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون هناك [٧].

كبيراً لحرصهم على الظهور بمظهر حماة الحرمين الشريفين. وأول من أدار المحمل بمصر السلطان الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨ ه. ويسير جمل المحمل يتهادى وعليه الحرير الملون وفوقه المحمل مغطى بالحرير تعلوه قبة فضية، وأمام الموكب تركض كوكبة من فرسان المماليك بملابس الميدان الزاهية ومعداتهم وأسلحتهم البراقة وهم يستعرضون مهاراتهم أمام المتفرجين من أفراد الشعب، ويقومون ببعض الألعاب البهلوانية، ودقات الطبول والموسيقى النحاسية تصم الآذان، ويخرج هذا الموكب في شهر شوال إلى طريق الحجاز على هذا الشكل يقوده أحد كبار أمراء المماليك وفيه عدد من الأطباء والمؤذنين، والقاضي والشهود، والأمناء ومغسلو الموتى، ويلتحق به من يريد الحج من الناس.. " انظر: نجم الدين إبراهيم بن على الحنفي الطَّرَسوسي، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، الطبعة: ٢، ١ / ٨٢.

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٥١٢.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٨١ - ٥٨٢.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٠٤.

(٤) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٢.

(٥) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٤٥ - ٥٠٢.

(٦) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٤٦.

(٧) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٩٨.

وفي سبيل تأكيد البعد الديني لدولته، قام الظاهر بيبرس بالتقرب إلى العلماء والقضاة والفقهاء، الذين كانوا طليعة المثقفين وقادة الرأي آنذاك.، فقد كان القرآن الكريم والحديث النبوي والعلوم المرتبطة بهما ركيزة التعليم والثقافة في ظل الحضارة العربية الإسلامية إلى جانب العلوم الأخرى التي عرفت باسم العلوم العقلية. ومن ثم كان " أهل العمامة " في ذلك العصر يمثلون عقل الأمة ووجدانها. كما كانوا يحتلون مكانة سامية لدى الحكام والمحكومين، وقد أعاد بيبرس للجامع الأزهر - أول مساجد القاهرة - مكانته عندما نزل ليصلي فيه الجمعة في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م بعدما أمر بترميمه وعمارته، وبذلك عادت الخطبة للجامع الأزهر بعد أن كانت قد انقطعت فيه مدة تناهز مائة سنة [١] وبنى مسجداً بالقاهرة حمل اسمه [٢].

وبالرغم من قيام دولة سلاطين المماليك على أنقاض الدولة الأيوبية، وبالرغم من قيام التتار بتحطيم معظم الممالك الأيوبية إلا أنه كانت توجد لهم بعض البقايا المتناثرة من الممالك في الشام، وعلى الرغم من أن المنصور صاحب حماة، والأشراف موسى صاحب حمص قد أعلنا ولاءهما للسلطان الظاهر بيبرس، كما أن الملك الصالح صاحب الموصل وصل إلى القاهرة في شعبان ٦٥٩هـ، ولحق به أخوه المجاهد صاحب الجزيرة،ولقيهما الظاهر بيبرس بحفاوة بالغة، ثم كتب تقليداً للملك الصالح ركن الدين إسماعيل بالموصل وولاياتها، ثم ولي الملك المجاهد سيف الدين إسحق ببلاد الجزيرة وأعمالها، وكتب لأخيهما الملك المظفر بولاية سنجار وأعمالها [٣]

(١) العيني، عقد الجمان، ٢ / ٦، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٣.
(٢) النويري، نهاية الأرب، ٣ /٩٣ - ٩٤.
(٣) النويري، نهاية الأرب، ٣ /٢٦ - ٢٧، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٤.

إلا أن العلاقة لم تكن على هذا النسق من المودة وحسن الجوار مع بقية أفراد الأسرة الأيوبية، ذلك أن الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل صاحب حصن الكرك لم يقلع يوماً عن مناوأة سلطان المماليك منذ عهد أيبك التركماني، اعتقادا منه أنه أحق منهم بملك مصر والشام، فلما جلس بيبرس على السلطنة عزم على القضاء على المغيث عمر ولإزالته، وأعد حملة كافية لتحقيق ذلك المشروع، لولا أن المغيث عمر بعث برسالة إلى الخليفة الحاكم بأمر الله بالقاهرة يسأله الشفاعة، فكتب الخليفة إلى الظاهر بيبرس يشفع فيه، فقبل الشفاعة، وأبقى على المغيث عمر والكرك معاً [١].

غير أنه يبدو أن المغيث عمر ظل على نيته القديمة نحو المماليك وسلطنتهم، فكتب إلى هولاكو سرًّا يحضه على فتح الشام، ويطلب إليه أن يقيمه عليها ملكاً تابعاً، ولكن بيبرس علم بأمر هذه المكاتبات المتبادلة بين هولاكو والمغيث عمر. ويقال أن هذه المكاتبات لم تحدث، وأن بيبرس اختلق القصة كلها لغرض في نفسه وهو التخلص من أحد الورثة الشرعيين للعرش الأيوبي المناوئين لسلطانه [٢].

ومهما يكن من شيء، فقد عمد بيبرس إلى السياسة والمداراة، فأرسل إلى المغيث عمر رسالة أكد له فيها الإيمان والمواثيق، وأنه يرعي ذمته ولا يمسه بأذى، وطلب إليه الحضور إلى معسكره بفلسطين. وعلى الرغم من تشكك المغيث عمر في مواثيق بيبرس، فاضطر إلى الذهاب إلى حضرة بيبرس في معسكره عند بيسان حتى لا يبدو جاحدًا لحسن المعاملة، ناكراً لجميل الخليفة والسلطان. وفي جمادى الأولى سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٣ م وصل المغيث عمر إلى الدهليز السلطاني عند بيسان، فقابله بيبرس وأكرم وفادته، وساق إلى

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ /٤٠٠، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٠.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٠.

جانبه حتى قارب الدهليز، وهناك قبض عليه واعتقله. ثم جمع بيبرس مجلساً حضره كبار الأمراء الشاميين وقاضي قضاة دمشق المؤرخ شمس الدين بن خلكان، وأوقفهم على الكتب المتبادلة بينه وبين هولاكو، كما أحضر القصاد الذين حملوا تلك الكتب، ثم أخرج بيبرس فتاوي الفقهاء بوجوب قتل المغيث عمر وأرسله مصفداً في الحديد القاهرة حيث قتل في إبريل سنة ١٢٦٣ م، واستولى بيبرس على الكرك في نفس السنة، وعين عليها والياً من قبله[١]. وبذا خلا الجو لدولة المماليك من آخر مناوئ لها من ناحية الأيوبيين [٢].

وأدرك بيبرس بحنكته السياسية وتمرسه في الحياة العسكرية أن وضع دولة المماليك الوليدة أصبح في مرمى نيران قوتين عظيمتين كانتا وما زالتا تناصبان الإسلام والمسلمين العداء، أولاهما المغول الذين مازالوا يلعقون جراحهم منذ هزيمتهم النكراء في عين جالوت، ولم يكن من اليسير عليهم نسيان هذه العثرة المريرة التي جعلتهم يغيرون وجهتهم الحربية، وثانيهما الصليبيين الذين ما زالوا يعيشون على وقع الهزيمة المذلة التي وقعت لهم على الأرض المصرية، وأدرك بيبرس أن كلا الفريقين سوف يحاولون رد اعتبارهم من المصريين، وأن تحرك أحدهما أو كلاهما للأخذ بثأره يعرض دولته للخطر، لذلك نجده يسعي لعقد التحالفات مع القوي القوية المحيطة به.

سارع بيبرس لعقد التحالف مع الدولة البيزنطية وإمبراطورها ميخائيل الثامن باليولوج سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢ م، وأرسل إليه - بناء على طلبه - بطريقا من الملكانيين، ليشرف على الملكانيين في دولته، وكان صحبه هذا البطريق - واسمه الرشيد الكحال - الأمير

(١) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ٥٥٠، المقريزي، السلوك، ٢ / ٤٨٢، ٤٩١ - ٤٩٢، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠١.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠١.

فارس الدين أقوش السعودي، وعدة من الأساقفة، فلما وصلوا القسطنطينية احتفي بهم الإمبراطور وأكرمهم، وأطلع الأمير أقوش على المسجد الذي جدد بناءه في عاصمته [١] كي يصلي فيه المسلمون من التجار والصناع وغيرهم من المقيمين أو المارين بلاده. ولما علم بيبرس بما قام به الإمبراطور البيزنطي من التجديدات في بناء هذا المسجد، أمر بتأثيثه وتجهيزه بالحصر والسجاجيد والقناديل المذهبة والمباخر والمسك والعنبر والعود وماء الورد... إلخ [٢].

ولم يكن اختيار بيبرس للإمبراطورية البيزنطية من قبيل المصادفة، بل كان عن دراية بالواقع المحيط بالدولة المملوكية، فقد بدت الإمبراطورية البيزنطية مؤهلة للتحالف مع بيبرس ضد الصليبيين، فقد صارت عدوًّا تقليديًّا للمستوطنات الصليبية في الشرق العربي، لا سيما بعد تجربة الأسر المريرة التي عانتها بيزنطة منذ استيلاء الحملة الصليبية الرابعة عليها سنة ١٢٠٤ م [٣].

كذلك حالف السلطان بيبرس إمبراطور الدولة الغربية وملك صقلية ونابلي منفرد بن فردريك الثاني هوهنشتاوفن، وأرسل له في أوائل حكمه سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م هدية من جملتها عدد من الزراف وعدد من أسري عين جالوت من التتار بخيولهم التترية وعدتهم، فأعجب الإمبراطور بالهدية، وأحسن إلى الرسل وأكرمهم.

---

(١) بنى هذا المسجد مسلمة بن عبد الملك في سنة ٧١٤ م / ٩٦ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك على أثر صلح بين البيزنطيين والعرب ينص بناء مسجد بالقسطنطينية، وقد هدمه الصليبيون أثناء غارتهم على القسطنطينية، ويقال: إن صلاح الدين قد حاول تجديد بنائه ولكن لم يجبه البيزنطيون إلى ذلك. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ / ٤٠٢، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٣.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ /٤٠٢ - ٤٠٣، المقريزي، السلوك، ١ /٤٢٧، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٣.

(٣) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٦.

وكان على رأس السفارة المصرية المؤرخ الحموي الكبير جمال الدين بن واصل الذي أمدنا ببعض أخبار تلك السفارة في كتابه " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " حيث يقول: " توجهت رسولاً إلى منفريد من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس - رحمه الله - في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة، فأقمت عنده مكرماً بمدينة من مدائن أبنولية [١] يقال لها برلت، واجتمعت به فوجدته متميزاً محباً للعلوم العقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس في الهندسة. وبالقرب من البلد التي كنت نازلاً بها مدينة تسمى لوجارة، أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية [٢] وتقام الجمعة فيها ويعلن فيها بشعائر الإسلام، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور [٣] وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية. وأكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون، ويعلن في معسكره بالأذان والصلاة [٤].

كما كان لبيبرس علاقات جيدة وودية مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة الأسباني، فتذكر المصادر الأسبانية أن ألفونسو العاشر أرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقداري هدية من الخيول العربية الأصيلة، وذلك في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م. وقد رد بيبرس بهدية مماثلة من بينها زرافة، وسن فيل، وتمساح محنط لا يزال إلى اليوم

(١) يريد بذلك مقاطعة أبوليا في جنوب إيطاليا.

(٢) يروي المؤرخون: أن الإمبراطور فردريك الثاني نقل معظم عرب جزيرة صقلية إلى مدينة لوجارة في أبوليا جنوبي إيطاليا سنة ١٢٤٩ م، وكان ذلك على إثر مصادمات عنيفة وقعت بين العرب والمسيحيين في صقلية، فنقلهم الإمبراطور معه إلى مدينة لوجارة حيث كان يقضي أغلب أوقاته متخذاً إياهم حرساً أميناً له. العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٤ حاشية ١.

(٣) يقصد الإمبراطور فردريك الثاني الذي كان اتصاله بملوك وعلماء المسلمين، وفضله في نشر الثقافة العربية في أوربا حديث الكتاب والمؤرخين في كل عصر. العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٤ حاشية ٢.

(٤) نقلاً عن، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٤.

معلقاً في مدخل الباب الشرقي لكاتدرائية أشبيلية، وتضيف الرواية أن السلطان بيبرس طلب الزواج من ابنة الملك الأسباني ألفونسو العاشر ولكن طلبه لم يتحقق [١].

كانت تلك جهود بيبرس في الغرب؛ أما في الشرق فقد بسط يد التحالف والصداقة إلى بركة خان، زعيم القبيلة الذهبية من قبائل المغول، الذي كان أول من اعتنق الإسلام من أبناء جنكيزخان. وكانت بلاد هذا الخان المسلم تمتد من تركستان شرقًا حتى شمال البحر الأسود غربا، وتعرف ببلاد القفجاق أو القبشاق، وعاصمتها مدينة صراي في شمال غرب بحر قزوين، وتبادلت الرسائل والسفارات بين بيبرس وبركة خان فيما بين سنتي ٦٥٩ و٦٦١ هـ / ١٢٦١ و١٢٦٣ م. كما تزوج بيبرس من ابنة بركة خان لكي يزيد من روابط الصداقة والود بينه وبين الخان المغولي بركة خان، وأمر له بالدعاء على منابر القاهرة والقدس والحرمين الشريفين مكة والمدينة [٢].

ولا شك أن هذا التحالف كان موجها بطبيعة الحال، ضد عدوهما المشترك الممثل في إيلخانات فارس التي يحكمها هولاكو وأولاده، وكانت تشمل فارس والعراق وعاصمتها تبريز أو مراغة [٣]، فيروي المقريزي أن بيبرس أخذ يحرض بركة خان على قتال هولاكو ويرغبه في ذلك [٤].

ولم يكتف بيبرس بذلك، بل حالف في سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٥.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/ ٤٠٩، مفضل بن أبي الفضائل النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ص ٤٥٤ - ٤٦٢، ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص٩٩، ١٦٧، المقريزي، السلوك، ١ / ٤٧٤ - ٤٧٥، العبادي، قيام، دولة المماليك، ص ٤٠٦، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٧.

(٣) العبادي، قيام، دولة المماليك، ص ٤٠٦.

(٤) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٦٥.

سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، ووعده بالمساعدة ركن الدين قلج أرسلان وضد هولاكو وأطماعه في آسيا الصغرى. وأرسل بيبرس جنوده إلى دمشق وحلب استعدادا لتأييد السلطان عز الدين ضد أخيه ركن الدين وضد المغول [١].

ومن الواضح أن المعاهدات التي أبرمت والسفارات التي تبودلت بين سلطان مصر المملوكي وبين ملوك الدول المحيطة به شرقا وغربا، جعلت دولة المماليك في شيء من الأمن مما قد يهد كيانها من ناحية المغول والصليبيين، وإن كان من المعروف أن خلو عهد بيبرس من حملة صليبية على مصر إنما يرجع لانصراف الدول الأوربية إلى شؤونها ومشاكلها في الغرب، كما أن قلة الغارات المغولية في عهده إنما يرجع إلى ما طرأ على المغول من حالة سكون مؤقت بعد عاصفة جنكيزخان وهولاكو في البلاد الشرقية على الأقل [٢].

بعد أن اطمأن بيبرس إلى جبهته الخارجية انطلق يشرع في استكمال مؤسسات دولته الداخلية، وتأمين حدوده ضد الغزو الخارجي، وتنظيم جيوشه، وتقوية أسطوله البحري، فقام بتجنيد العشائر العربية سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م، وهي العشائر المقيمة على الحدود الفراتية مثل عرب خفاجة، وحثهم على قتال هولاكو بعد أن غمرهم بالخلع والهدايا والأموال، ويقال: إن هؤلاء العربان قاموا بمهمتهم خير قيام حتى وصلت إغاراتهم أبواب مدينة بغداد التي كان المغول يحكمونها آنذاك[٣].

كما أعاد تحصين القلاع التي تحمي مناطق الحدود مع دولة مغول فارس،وشحنها بالذخيرة والأقوات، وتمركزت بها أعداد كافية

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٦.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٧.
(٣) المقريزي، السلوك، ٤٧٦/١.

من الجنود، وأقام سلسلة من نقاط المراقبة المنائر [١] لرصد نشاط العدو في تلك المناطق الحدودية، وكان تبادل المعلومات بين نقاط المراقبة يتم عن طريق هذه الإشارات الضوئية بالنيران، أو إشارات الدخان [٢].

كما أمر بيبرس نوابه بحلب سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م بإحراق المروج والأعشاب التي جرت عادة هولاكو أن يعسكر على مقربة منها أثناء هجومه على الشام [٣] فجهزت القداحات والصوفات والآت النار سراً، وأحرقت تلك المروج جميعها، وهي مسيرة عشرة أيام من آمد إلى خلاط، وبذا قطع بيبرس على هولاكو وجنوده السبل

(١) وهي عبارة عن أبراج للمراقبة يرابط فيها الحراس والمرابطون ليل نهار. فإذا كشفوا عدوًّا مقبلاً من البر كالمغول، أو من البحر كالصليبيين، أشعلوا النار على قمم هذه المناور إذا كان الوقت ليلا، أو أثاروا فيها دخاناً إذا كان الوقت نهاراً. ثم سرعان ما تنتقل هذه الإشارات النارية أو الدخانية من منارة إلى أخرى تحذر الأهالي إلى أن تصل إلى العاصمة. فهي تشبه صفارات الإنذار في وقتنا الحاضر، وكثيرًا ما استعمل المنورون إشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك. وإن كانت المصادر لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات. العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٩.

(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٧ - ٩٨.

(٣) وذلك أنه كان من عادة التتر أنهم لا يكلفون علوفة لخيلهم بل يكلونها إلى ما تنبت الأرض، فإذا كانت تلك أرض مخصبة سلكوها، وإذا كانت مجدبة تجنبوها؛ وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة الذكر أرضاً مخصبة، تقوم بكفاية خيل القوم إذا قصدوا بلادنا، فإذا أحرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك جميع الرفق، والدفع عن مباغتة الأطراف ومهاجمة الثغور. وكان طريقهم في إحراقها أن يجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد، فيكمنون عند أمناء النصاح في كهوف الجبال وبطون الأودية، ويرتقبون يوماً تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزع، تعلق النار موثقة في أذناب تلك الثعالب والكلاب، ثم تطلق الثعالب، والكلاب في إثرها وقد جوعت، لتجد الثعالب في العدو، والكلاب في الطلب، فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره انظر. القلقشندى، صبح الأعشى، ٥/ ٤٨٤.

والطريق المؤدية إلى الشام [١].

ثم أمر بيبرس سنة ١٢٦٣ / بعمارة القلاع التي خربها المغول من حمص إلى حوران، وزودها بالمؤن والذخيرة، فأقام بذلك خطًّا حصيناً من شرق الأردن إلى نهر العاصي، فضلاً عن أبراج المراقبة التي أقامها على طول الأطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الفرنج [٢].

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أمر في سنة ١٢٦٤ م بتجديد بناء القلاع التي على الحدود الفراتية لا سيما قلعة ألبيرة التي أرسل إليها آلات القتال والأسلحة من مصر والشام، وعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها من الحصار لمدة عشر سينين، كي تظل شوكة في جنب المغول [٣].

أما في مصر فإن السلطان أمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخور عظيمة ليجول دون مرور سفن الصليبيين وتتكرر مأساة دمياط من جديد، كما شيد برجًا للمراقبة في رشيد، وعمر أسوار الإسكندرية وجدد بناء المنار الذي بها [٤].

على أن بيبرس لم يكتف بتلك الاستعدادات الدفاعية لضرورة ما تتطلبه الظروف الحربية من سرعة تلقي الأخبار ولإصدار الأوامر، ولهذا وضع للبريد نظامًا ربط به جميع أنحاء مملكته بشبكة من خطوط البريد البرية والجوية. وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل بالقاهرة، ومنها تتفرع سائر الخطوط، وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء المملكة، وإليها ترد الرسائل من الحكام، والتقارير من ولاة الأعمال، والنيابات في سرعة وانتظام، حتى صار البريد يصل من

(١) العبادي، قيام، دولة المماليك، ص ٤٠٧ - ٤٠٨.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٠٩.
(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٢٥، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢١١.
(٤) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢١١.

دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام، ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق بيبرس أموالاً ضخمة في سبيل ترتيبه [١].

ولم يقتصر الأمر على البريد البري، فهناك أيضا ما يمكن أن نسميه البريد الجوي، ونعني بذلك الحمام الزاجل، الذي كان يستخدم في الحالات المستعجلة. وكان لهذا الحمام أبراج خاصة، بالقلعة ومراكز معينة في سائر أنحاء المملكة مثل مراكز البريد البري، ولكنها تزيد عنها في المسافة [٢].

ولم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند هذا الحد، بل عمل على إنشاء قوة بحرية يستعين بها في صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر، ويعتبر بيبرس مؤسس أسطول المماليك، إذ يشير المقريزي إلى كثرة ركوب هذا السلطان في بحر النيل، وإلى اهتمامه بدور صناعة السفن في الفسطاط (مصر) وجزيرة الروضة، والإسكندرية ودمياط، لدرجة أنه كان يشرف على بنفسه على بناء

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٤٦ - ٤٤٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ١٠٨/١ يقول المقريزي عن تنظيم بيبرس للبريد: ".. فلما ملك مصر الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ، رتب البريد في سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق في أربعة أيام، ويعود في مثلها، فصارت أخبار الممالك تَرِد إليه في كل جمعة مرّتين، ويتحكم في سائر ممالكه بالعزل والولاية، وهو مقيم بالقلعة، وأنفق في ذلك مالاً عظيماً حتى تم ترتيبه، وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة، وما زال أمر البريد مستمرّاً فيما بين القاهرة ودمشق، يوجد بكل مركز من مراكزه عدّة من الخيول المعدّة للركوب، وتعرف بخيل البريد، وعندها عدّة سُوّاس، وللخيل رجال يعرفون بالسوّاقين، وأحدهم سوّاق يركب مع رسم بركوبه، خيل البريد ليسوق له فرسه، ويخدمه مدّة مسيره، ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطانيّ، فتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهماته، وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطانيّ، وكانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة، أو ماشية، لا تحمل زاداً ولا ماء. " المقريزي، المواعظ والاعتبار، ١ /٢٨٦.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ١٤/ ٣٨٩ - ٣٩٤.

الشواني، وتجهيزها بآلالات[1].

ولما كان الجيش يحتاج إلى رجال مثلما يحتاج إلى أسلحة وعتاد، فقد حرص بيبرس على الإكثار من شراء المماليك من بني جنسه القفجاق، إذ "... مالت الجنسية إلى الجنسية.. " على حد تعبير المؤرخ أبي العباس القلقشندى، وربما كانت العلاقات الودية الوطيدة بين بيبرس وبركة خان، حاكم القفجاق، هي التي يسرت سبيل الحصول على المماليك القفجاق من ناحية، كما أن الهجرات المغولية الكثيرة إلى مصر كانت موردًا إضافيًّا من ناحية أخرى، كذلك كانت علاقاته الودية مع الإمبراطور البيزنطي تسهل مرور السفن التي تحمل أولئك المماليك، ولما كانت بلاد القفجاق بلادًا رعوية شحيحة الموارد، فقد كان أهلها من الرعاة الحل الذين يمضون الصيف في منطقة والشتاء في منطقة غيرها، وكانت وطأة الفقر والحاجة تجعلهم يبيعون أبنائهم وبناتهم مقابل مبلغ من المال أو كمية من الغلال، ومن ناحية أخرى كان أولئك الرعاة الفقراء محاربين جسورين، فكانوا يغيرون على جيرانهم من الجراكسة والروس والمجر واللان ويسبون أعدادًا منهم يبيعونهم في أسواق الرقيق العالمية.

على أية حال استطاع السلطان الظاهر بيبرس تكوين جيش قوي بلغت عدته أربعين ألف فارس، وهو رقم ضخم بمقاييس ذلك الزمان، لا سيما إذا عرفنا أن الفارس المدرع كان له تأثير نفسي على المشاة في ميدان القتال يشابه تأثير الدبابة في زماننا [2].

في عهد بيبرس، استطاع أن يغير السياسة المصرية تمامًا نحو الصليبيين في الشام حيث أصبحت تتسم بطابع المبادأة والهجوم العنيف والقسوة. والسبب في ذلك يرجع إلى أن الصليبيين أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك، ويعملون كأدلاء

(١) المقريزي، الخطط، ٢ / ١٨٠، ٢٩٧، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢١٣.
(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٩٩ - ١٠٠.

ومرشدين لجيوشهم المغيرة على الأراضي الشامية، وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي في الشام الذي أتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية وإحاطة المغول علما بها مما سهل عليهم إحباط خطط المسلمين في كثير من الأحيان. ولم يقتصر الأمر على ذلك النحو، بل نجد أن بعض الإمارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية بالنزول في حصونها من باب التعاون العسكري أو الدفاع المشترك ضد المسلمين. ولم تلبث هذه الحاميات المغولية أن فرضت إرادتها على الصليبيين في كثير من الأحيان، وصارت تملي عليهم إرادة الخان المغولي المقيم في تبريز أو مراغة أو بغداد.

هذه الحركة الماكرة من جانب الصليبيين في الشام، كانت بلا شك السبب الحقيقي لتلك السياسة العنيفة التي اتبعها بيبرس وخلفاؤه نحو الصليبيين إذ عز عليهم أن يكونوا مراقَبين من الفرنج لحساب المغول، فصمموا على طردهم من الشام [١].

وفي سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م بدأت عمليات الظاهر بيبرس العسكرية ضد الصليبيين، ففي ربيع الآخر من هذه السنة توجه إلى بلاد الشام، وهاجم قيسارية وحاصرها حتى تم فتحها عنوة في الثامن جمادى الأولى، ثم استولى على أرسوف في رجب من السنة نفسها [٢].

وكانت تلك مجرد بداية لغارات بيبرس وحملاته على الصليبيين، فمنذ تلك السنة بدأ هجوم دولة سلاطين المماليك على الصليبيين، ولم ينته إلا بالقضاء عليهم تماما بعد حوالي ثلاثين سنة في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون. وكثيرًا ما لجأ بيبرس إلى عقد المعاهدات والاتفاقيات مع بعض القوي الصليبية كي يضمن النجاح لعملياته

(١) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.
(٢) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٠٧، العيني، عقد الجمان، ١ / ٣٩٦ - ٣٩٨.

العسكرية ضد البعض الآخر [١].

وفي السنة التالية ١٢٦٦ م، هاجم بيبرس قاعدة إستراتيجية صليبية خطيرة في الشام هي قلعة صفد التي كانت قاعدة لفرسان الداوية، وبعد قتال عنيف تمكن بيبرس من الاستيلاء عليها [٢] ويقال: إن بيبرس استولى على صفد بعد تأمينها ثم نكث بوعده وأمر بقتل حماتها لأسباب غامضة [٣]، مما جعل المصادر الصليبية تتهمه بالخيانة والغدر. ولا مجال للكلام هنا عن الغدر والخيانة مع أناس مثل الصليبيين كان الغدر هو شيمتهم طوال تاريخهم الطويل، وحسبنا أن نتصفح أخبارهم لنجد أمثلة مشابهة كثيرة في هذا المجال [٤].

على ما يبدو أن سقوط قلعة صفد في أيدي المسلمين، وما جرى لفرسانها الداوية قد أصاب الصليبيين بضربة قاصمة، جعلتهم يهيمون على وجوههم إلى بيبرس يطلبون الأمان وعقد معاهدات الصلح معه، فقد أسرع أمير صور، وأمير بيروت، وفرسان الإسبتارية في كل من حصن الأكراد وحصن المرقب إلى طلب عقد الهدنة مع السلطان الظاهر بيبرس، كما أنه نجح في سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م من الاستيلاء على مدينة يافا بفلسطين، ثم استولي على حصن منيع آخر هو حصن الشقيف أرنون بعد حصار دام شهرين [٥].

---

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٢.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٠ - ٢٦٥.

(٣) لم تكن أسباب ودوافع بيبرس غامضة بالقدر الذي يجعلنا نجهلها، فقد كان هؤلاء الفرسان من الداوية أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين وارتكبوا الكثير من المذابح والفظائع ليس في حق المحاربين فقط بل وفي حق الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء الأسرى.

(٤) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٣.

(٥) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٦٤ - ٥٦٦.

وفي نفس العام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م وجه بيبرس ضربة قاصمة للصليبيين عندما استولى على مدينة أنطاكية في أقصى الشمال، فيروي المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق: إحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر، والثانية سدت الممرات بين قليقية والشام لمنع وصول إمدادات من أرمينية الصغرى، والثالثة وهي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس، هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها في مايو سنة ١٢٦٨ م / رمضان سنة ٦٦٦هـ [١] واستولى المسلمون على المدينة التي ظلت رهن الأسر الصليبي منذ الحملة الصليبية الأولى، أي على مدي أكثر من مائة وخمسين سنة.

وقد بلغ من كثرة الغنائم التي غنمها المسلمون من أنطاكية ".. أن قسمت النقود بالطاسات " كما بلغ من كثرة الأسرى أنه "... لم يبق غلام إلا له غلام... وبيع الصغير باثني عشر درهمًا، والجارية بخمسة دراهم " [٢].

وعلى ما يبدو أن نجاحات بيبرس في الجهاد ضد الصليبيين قد شجعته لمواصلة حركة التحرير الكبرى التي بدأت منذ الدولة الأيوبية، وإن كانت تعطلت حينًا من الزمن بسبب المنازعات الأيوبية، ثم جاء الظاهر بيبرس ليعيد إحياء حركة الجهاد الكبرى التي بدأها صلاح الدين الأيوبي، وهي الحركة التي لم تنته إلا عندما نجحت القوات المصرية بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في اجتثاث بقايا الصليبيين من عكا سنة ١٢٩٠م، وإلقاءها في البحر المتوسط لتعود من حيث أتت.

بدأ بيبرس مهاجمة إمارة طرابلس في العام ١٢٧٩ م / ٦٦٩ هـ حيث استولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة والحصون المحيطة

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٥٦٨، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ٢ / ١١٤٩.

(٢) المقريزي، السلوك، ى١ / ٥٦٨.

بها، ومن أهمها حصن الأكراد وحصن عكار، فأصبح بمقدوره بذلك حصار مدينة طرابلس نفسها والاستيلاء عليها، ولكن الأنباء الواردة بخروج حملة الصليبية الثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع أنقذت طرابلس من السقوط مؤقتا، ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس عاد مسرعا إلى القاهرة خوفا من أن يعيد الملك الفرنسي لويس التاسع الكرة ويهاجم مصر، واهتم بتحصينها وأعلن حالة الاستنفار في صفوف الجيش والأسطول، وأهمل أمر طرابلس [1].

ويبدو أن ملك فرنسا كان يريد فعلاً أن يكون اتجاه الحملة الصليبية نحو المعاقل الإسلامية في الشرق العربي، لولا أن أخاه شارل دي أنجو الذي كان ملكا على جزيرة صقلية، أراد استخدام تلك الحملة في تدعيم ملكه، وذلك بالاستيلاء على مملكة تونس التي كانت تحت حكم الحفصيين في ذلك الوقت، والمراجع التونسية ترجع أسباب تلك الحملة إلى عامل الانتقام الشخصي، فيقول أبو القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار: " وسبب نزول الفرنسيين تونس، قيل: إنه ذكر اسمه يومًا بحضرة الخليفة المستنصر بالله الحفصي، فهضم من جانبه، وقال: هو الذي أسره هؤلاء وأطلقوه - يشير إلى المماليك -، فبلغت تلك المقالة الفرنسيس - أي لويس التاسع - فحقد لها وعزم على غزو تونس " [2].

والواقع أن هذه الرواية - إن صحت - لا تعدو أن تكون سبباً مباشراً فقط، أما السبب الحقيقي فيرجع إلى أهمية موقع تونس بالنسبة إلى صقلية التي كان يحكمها شارل أخو الملك الفرنسي كما هو معروف، ويكفي أن ننبه الأذهان في هذا الصدد إلى أن غزو المسلمين لصقلية قد تم من تونس في عهد الأغالبة على القاضي

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٣١ - ٣٣٣، السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٢٦٩، أنور زقلمة، المماليك في مصر، ص ٣٧.

(٢) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص ١٢٩، نقلا عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٧.

القيرواني أسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م. وكل هذا يفسر مدى خطورة موقع تونس بالنسبة لصقلية. ولهذا نجح شارل في إقناع أخيه لويس في تحويل تلك الحملة إلى تونس [١].

ولم تكد مراكب الفرنسيين تصل إلى الشواطئ التونسية حتى أصيب الملك الفرنسي لويس التاسع بحمى شديدة مات على إثرها، وتولى أخوه شارل قيادة الحملة، فأخذ يسير وفق أهوائه حتى أزال عنها صفتها الصليبية. وانتهى أمر هذه الحملة بإجراء مفاوضات مع الخليفة المستنصر الحفصي الذي تعهد بدفع مبلغ من المال مقابل انسحاب الفرنسيين. وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة المادية الضعيفة التي أغضبت معظم الذين اشتركوا فيها [٢].

كانت لدى الظاهر بيبرس جرأة وخبرة جعلته يدرك مدى خطورة موقع جزيرة قبرص والتي كان يعول عليها الصليبيون كثيراً في هجماتهم على المسلمين، لا سيما وأن هذه الجزيرة قد آل حكمها للملك هيو الثالث لوزجنان الذي اشتهر بأطماعه الصليبية في الشام، وبعداوته الشديدة لدولة المماليك، ولذا فإن الظاهر بيبرس قد جرد أسطولاً ضخما لمهاجمة قبرص والاستيلاء عليها وحرمان الصليبيين من الاستفادة منها وتجنيب المسلمين خطرهم الآتي منها، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، إذ تحطم هذا الأسطول عند شواطئ قبرص بسبب هبوب عاصفة شديدة [٣].

وعندما علم هيو بنبأ الغارة البحرية الفاشلة على بلاده ظن أن ذلك نصراً حققه على دولة المماليك، فأرسل إلى بيبرس رسالة يسخر فيها منه، فرد عليه بيبرس قائلاً: "... وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، والاستيلاء على الحصون المنيعة هو

(١) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٧.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٨.
(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٩٤، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

العجب،... وما النصر بالهواء مليح، وإنما النصر بالسيف هو المليح... ونحن ننشئ في يوم واحد عدة قطايع - سفن -، ولا ينشأ لكم من حصن قطعة،... وما كل من أعطي مقذافاً قذف، وما كل من أعطي السيف أحسن الضرب به أو عرف... " [١].

ولم يلبث الظاهر بيبرس أن عاد مرة أخري إلى الشام أن تأكد لديه انتهاء الحملة الصليبية على تونس بالفشل الذريع، ففي العام ١٢٧١ م كانت قوات الظاهر بيبرس تقاتل إمارة طرابلس الصليبية من جديد، هذا في الوقت الذي وصلت فيه حملة صليبية إنجليزية بقيادة الأمير إدوارد إلى عكا قوامها ثلاثمائة فارس، وثلاثمائة سفينة، غير القوات التي كانت قد سبقته إلى الشام، وبالرغم من ذلك فقد شدد بيبرس من هجومه على طرابلس حتى طلب أميرها الصليبي بوهيمند السادس عقد هدنه وصلحا مع الظاهر بيبرس لمدة عشر سينين [٢].

وحاصل الأمر أن الإمارات الصليبية في الشام بدأت تشعر بخطورة الأمر بعد فشل الحملة الصليبية الفرنسية على تونس، وشعرت أن الغرب الأوربي بدأ يتخلى عنهم ليصارعوا دولة المماليك وحدهم فسارعوا إلى طلب الصلح وعقد الهدنة مع الظاهر بيبرس، الذي وافق على إبرام الصلح وعقد الهدنة، وتم الصلح بالفعل بين بيبرس والإمارات الصليبية بوجه عام سنة ١٢٧١ م [٣]

ومن أطرف هذه الاتفاقيات بين بيبرس والإمارات الصليبية تلك الاتفاقية التي عقدتها معه إزابيلا، ملكة بيروت عام ٦٦٧ هـ (١٢٦٨م) ومدتها عشر سنوات، فقد ذكر القلقشندى أن هذه الملكة قد وثقت ببيبرس إلى درجة أنها كانت عندما ترغب حب السفر إلى

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٩٤.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٩٢ - ٥٩٣، النويري، نهاية الأرب، ٣ / ٣٣١ - ٣٣٢.
(٣) النويري، نهاية الأرب، ٣ /٣٤٣ - ٣٤٤.

جهة ما، تذهب بنفسها إلى بيبرس وتستودعه بلادها، وعندما خطفها الملك هيو الثالث ملك جزيرة قبرص قام بيبرس بتخليصها عن طريق توجيه تهديدات لهيو. لهذا اتخذت لنفسها حرسا من المماليك حتى ماتت عام ٦٧٢ هـ (١٢٧٤م)، وقلدتها في هذه السياسة أختها وخليفتها حتى استولى المسلمون على بيروت [١].

ويجمل القلقشندى بعض منجزات الظاهر بيبرس الجهادية بقوله: "... وأخذ في جهاد الفرنج واستعادة ما ارتجعوه من فتوح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وغير ذلك ففتح البيرة في سنة تسع وخمسين وستمائة والكرك في سنة إحدى وستين، وحمص في آخر سنة اثنتين وستين وستمائة، وقيسارية وأرسوف في سنة ثلاث وستين، وصفد في سنة أربع وستين، ويافا والشقيف، وأنطاكية في سنة ست وستين، وحصن الأكراد وعكا وصافيتا في سنة تسع وستين، وكسر التتار على ألبيرة بعد أن عدى الفرات خوضاً بعساكره في سنة إحدى وسبعين؛ وفتح قلاعاً من بلاد سيس في سنة ثلاث وسبعين ودخل بلاد الروم، وجلس على كرسي بني سلجوق بقيسارية الروم [٢].

وبعد حياة حافلة بالجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين والمغول توفي بيبرس بعد تولاه التعب سنة ١٢٧٧ م/ ٦٧٦ هـ [٣].

يقول أبو المحاسن ابن تغر بردي عن الظاهر بيبرس: " وقال الحافظ الذهبي في تاريخه: كان غازياً، مجاهداً، مرابطاً، خليقاً للمملكة لولا ما كان فيه من الظلم، والله يرحمه ويغفر له؛ فإن له أياماً بيضاء في الإسلام، ومواقف مشهودة، وفتوحات معدودة. انتهى كلام الذهبي، رحمه الله... قلت: وكان الملك الظاهر - رحمه الله - ملكاً شجاعاً،

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٧/ ٣٥.
(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ١ / ٤٨٨.
(٣) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

مقداماً، خبيراً بالحروب، ذا رأي وتدبير وسياسة، ومعرفة تامة. وكان سريع الحركات، كثير الأسفار، نالته السعادة والظفر في غالب حروبه، وفتح عدة فتوحات من أيدي الفرنج... وله مآثر بالقاهرة ودمشق وغيرها. وبني عدة جوامع، ومدارس، وقناطر، وجسور مشهورة به بسائر الأقاليم " [1].

يقول بدر الدين العيني: " كان شهما، شجاعا، سخيّا، عالي الهمّة، بعيد الغور، مقداما، جسوراً، معتنياً بأمر السلطنة، متحلّيا بها، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله، وإقامة شعائر الملك.

وفي تاريخ النويريّ: وكان ملكًا جليلاً، شجاعًا، مهينًا، حسن السياسة، كثير النحيّل، وكان عسوفًا جباراً، كثير المصادرات للرعية والدواوين خصوصًا لأهل دمشق، وكان متنّبها، شهمًا، لا يفتر ليلا ولا نهارًا عن مناجزة الأعداء ونصرة الإسلام، وكان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه، وكذلك جيشه. " [2]

ومما رثى به ما قاله محيي الدين بن عبد الظاهر يرثي به الملك الظاهر:

أبدًا عليك تحيّة وسلام ::: يا قبر من فجعت به الإسلام
يا تربة لولا الحياء من الحيا ::: أمسى سجال الدمع فيك سجام
يا دمع عبني مثل دمع سحابة ::: هيهات بين الدمعتين زحام
فسبقت كل سحابة هطالةٍ ::: يثني عليها منـدّلٌ وبشام
تنهل منك نوال ساكنك الذي ::: من كفه فوق السماح يسام
الظاهر السلطان من بمصابه ::: هدّ الهدى وتضعضع الإسلام
وغدت دمشق بقبره وحلوله ::: فيها نتيه على الوجود شام
قبر به تتضاعف الأقسام من ::: بركاته وتوكد الأقسام

(١) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ١ / ٢٩٧ - ٢٩٨.
(٢) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ١/ ١٥٣.

قبربـــه تتوســـل الآمـــال في ::: حاجاتهـــا وتصـــرف الأحكـــام
قبر الـــذي لـــو أنصـــفته قلوبنـــا ::: مـــا أصـــبحت لمســـرّة تســـتام
قـــبر الـــذي قلـــع القـــلاع ::: ســـكانها ولـــه الحصـــون خيـــام
قبر الذي قهر التتـــار فأصـــبحوا ::: ولهـــم إذا نـــاح الحمـــام حمـــام

وقال بيبرس: قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يرثيه أبياتًا أولها:

ما مثل هذا الرزء قلـــب يحمـــل ::: كـــلا ولا صـــبر جميـــل يجمـــل
الله أكـــــبر إنهـــــا لمصـــــيبةٌ ::: منها الرواســـي خيفـــةً تتقلقـــل
مـــا للرمـــاح تخولهـــا رعـــدة ::: ألتركها أن لـــيس تعقـــل تعقـــل
لهفى على الملك الذي كانت بـــه ::: الدنيا تطيب وكـــلّ قفـــر مـــزل
الظاهر السلطان من كانـــت لـــه ::: منن على كـــلّ الـــورى وتطـــول
لهفي علـــى آرائـــه تلـــك الـــتي ::: مثل السهام إلى المصـــالح ترســـل
لهفي على تلك العزائم كيف قـــد ::: غفلت وكانت قبـــل ذا لا تغفـــل
سهم أصاب وما رثى مـــن قبلـــة ::: سهم لـــه في كـــل قلـــب مقتـــل
أنا إن بكيت فإن عذري واضـــحٌ ::: ولـــئن صـــبرت فـــإنني أتمثـــل
خلـــف الســـعيد لنـــا الشـــهيد ::: فأدمعٌ منهلةٌ في أوجه تتـــهلل [1]

ولا شك أن هذا السلطان العظيم استطاع بأعماله وإصلاحاته الواسعة النطاق أن يحول دولة المماليك، من دولة ناشئة إلى دولة قوية، مدعمة الأركان، وأن يمهد الطريق لخلفائه من بعده كي يتمموا رسالته، ويصلوا إلى الهدف المنشود وهو القضاء على المغول والصليبيين.

لهذا ذاع صيته، واشتهرت سيرته دونًا عن سائر السلاطين. لدرجة أن أخباره امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص، ونذكر على سبيل المثال تلك الملاحم الشعبية المعروفة بالسيرة

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ / ١٥٥.

الظاهرية، أو سيرة الظاهر بيبرس والتي تصور شخصية بيبرس، وكأنها شخصية عصر أكثر مما هي شخصية إنسان، إذ تنعكس فيها صورة هذا الوضع الجديد أو هذه النقلة الجديدة التي تحولت فيها دولة المماليك في مصر والشام إلى دولة راسخة الأقدام [1].

* * *

(١) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٤٠.

الأشرف خليل بن قلاوون

من مشاهير أعلام المسلمين

الأشرف خليل بن قلاوون
[٦٦٦ - ٦٩٣هـ/ ١٢٦٨ - ١٢٩٣م]

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي رحمهما الله، أحد أبرز سلاطين الأسرة القلاوونية المملوكية البحرية التي حكمت دولة المماليك العظمى أكثر من مائة قرن من الزمان.

ولد سنة ٦٦٦هـ في مصر، ونشأ في كنف والده الأمير ثم السلطان قلاوون، حيث أجواء الحرب والجهاد والقتال.

كان المنصور قلاوون قد ترك ثلاثة أولاد وهم الملك الأشرف خليل والملك الناصر محمد، والأمير أحمد الذي مات في حياة أبيه، واستقر الرأي على أن يكون الأشرف خليل هو السلطان على البلاد فجلس على تخت الملك بقلعة الجبل يوم الأحد السابع من ذي القعدة ٦٨٩ هـ / نوفمبر ١٢٩٠ م [١].

ثم تولى السلطان الأشرف خليل السلطنة في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، بعد وفاة أبيه قلاوون خلفاً لوالده، وذكر المؤرخون أنه في هذه السنة تصدق بصدقات كثيرة.

فجدد له الأمراء والجند البيعة، وأخذ في ترتيب أمور مصر، فأبقى الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري نائباً للسلطنة في مصر،

(١) المقريزي، السلوك، ١ ٧٥٦ - ٧٥٧، ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ٣ - ٤، أبو الفدا، المختصر، ٤ / ٢٤.

وخلع فيها بالوزارة على الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس الدمشقي، وكان الأمير حسام الدين لاجين نائبه في دمشق ومن بعده علم الدين سنجر الشجاعي ثم عز الدين أيبك الحموي شمس الدين بن السلعوس، كما أطلق الأمير زين الدين كتبغا - السلطان فيما بعد - ورد عليه أقطاعه..

وقد سعى الأشرف خليل منذ توليه السلطة إلى فرض هيمنته الكاملة على شؤون الحكم والحد من تسلط أمراء المماليك، وتركت مساعيه هذه بصمات قوية على عهده القصير، فلم تكد قدم الأشرف خليل ترسخ في الملك حتى راح كبار الأمراء، الذين كان لهم باع طويل في عهد أبيه، يتآمرون عليه، فصادر أكثرهم وأقصاهم عن أعمالهم، وقتل بعضهم مثل حسام الدين طرنطاي، وسجن عدداً آخر منهم مثل شمس الدين سنقر الأشقر، وسيف الدين بن جرمك الناصري، وحسام الدين لاجين، وبدر الدين بَيْسَرى، وجمال الدين أقوش الأفرم المنصوري وغيرهم، وأطلق جماعة منهم بعد أن سجنهم.

وكان رحمه الله كريماً حتى التبذير، واهتم بالعمران وبتحصين مدن بلاد الشام بعد خروج الصليبيين منها، وهدم الحصون التي كان الفرنج يلوذون بها، كما جدد قلعة حلب بعد الخراب الذي أصابها من هولاكو، ورمم قلعتي دمشق وبعلبك وزاد فيهما، وبنى المسجد الجامع في طرابلس، وعدداً من المدارس والدور في دمشق والقاهرة، ومنها المدرسة الأشرفية في القاهرة، وكان الملك الأشرف قد أنشأها سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م عندما كان وليًّا للعهد ثم أتم عمارتها وزخرفتها بعد أن تسلطن فنسبت إليه.

عزم السلطان الأشرف على تطهير الساحل المتوسطي الشامي من الصليبيين وتحرير بقية المدن التي يحتلونها امتدادًا لرحلة جهاد مقدسة طويلة قادها قبله عماد الدين زنكي ونور الدين محمود

وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس وأبوه المنصور قلاوون.

فبعد تجهيزات دقيقة تحرك الجيش الإسلامي من مصر في ربيع الأول سنة ٦٩٠ هـ / مارس ١٢٩١ م، ووصل عند أسوار عكا بعد مسير شهر تقريبًا، وهناك وصلت معدات الحصار من دمشق، وكان عددها اثنين وتسعين منجنيقا استغرق نصبها أربعة أيام، وفي الوقت نفسه جاءت جموع الصليبيين إلى عكا عن طريق البحر للمساعدة في مقاومة الحصار، وفي داخل المدينة المحاصرة أيقن الفرنج أن نهايتهم قد حانت، وأخذت المنظمات الرهبانية العسكرية تستدعي كل ما يمكن من فرسانها في أوربا، كما أرسل إدوارد الأول مجموعة من الفرسان الإنجليز، وجاءت قوات من قبرص،... بيد أن هذا كله لم يجد نفعا أمام قوة جيش الأشرف خليل بن قلاوون الذي اقتحم المدينة في يوم الجمعة ١٧ جمادي الأولى سنة ٦٩٠ هـ. وقبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم كانت الأعلام الإسلامية تخفق فوق أسوار عكا... وهرب الفرنج في البحر، وهلك منهم خلق كثير من شدة الازدحام والتدافع للنجاة والهرب، [١] وكانت مدة حصار عكا أربعة وأربعين يوما، ثم سقطت بعد أن ظلت في أسر الفرنج الصليبيين على مدي تاريخ الوجود الصليبي تقريبا، باستثناء سنوات قليلة أثناء الحملة الصليبية الثالثة [٢].

بعد عكا، سقطت بقية المعاقل والمدن الصليبية بالشام تباعا، وبذلك عادت بلاد الشام للسيادة العربية الإسلامية مرة أخري. ودالت دولة الفرنج بعد أن استمرت في الوجود مائتي سنة تقريبا. بيد أن القضاء على بقايا المستوطنات الصليبية في المنطقة العربية سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م، لم يكن يمثل النهاية الحقيقية لقصة " الحركة

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٧٦٢ - ٧٦٥، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ٨/ ٣٠٨ - ٣١٠، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ١ / ١٣٧ - ١٣٨، العيني، عقد الجمان، ٣ / ٥٦ - ٦٥، النويري، نهاية الأرب، ١٣/ ١٩٧ - ١٩٩.

(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١٢٢.

الصليبية " فقد لجأت فلول الهاربين إلى قبرص ورودس لمحاولة إعادة بث الحياة في الجسد الصليبي الميت على طوال القرنين التاليين، كما أن البابوية وأنصارها لم يكفوا عن صياغة مشروعات صليبية جديدة بهدف السيطرة على المنطقة العربية، والتحكم في طرق التجارة العالمية ومحطاتها، ومن ناحية أخرى استمرت دولة سلاطين المماليك تؤدي دورها التاريخي في المواجهة الطويلة والمضنية، على الرغم من أن المواجهة لم تعد تتطلب حشد الموارد كلها في صالح الجهد الحربي، كما كان طوال فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية [1].

تحول الأشرف بعد تحرير الشام من الفرنجة لقتال المغول في الجزيرة الفراتية والعراق، فقصد قلعة الروم على الفرات في رجب سنة ٦٩١هـ/ تموز ١٢٩٢م فاحتلها بعد حصار دام ثلاثين يوماً، وأسر أميرها ورؤوس أصحابه، وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً، وزينت دمشق سبعة أيام احتفالاً بالنصر.

ولما شعر ملك أرمينية هيثوم الثاني بقوة موقف الملك الأشرف خليل، تخلى له بعد عام من ذلك التاريخ عن قلاع بَهَسْنا ومرعش وتل حمدون التي تتحكم بالطرق المؤدية إلى حلب، وبعد أن رتب الأمور في الشام عاد الملك الأشرف خليل إلى مصر.

ودخل السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون دمشق في أبهة النصر ومكث بها حتى اطمأن على زوال الخطر نهائيًّا ثم قفل راجعًا إلى القاهرة في أواخر رجب فدخلها في تاسع شعبان ٦٩٠هـ في أبهة عظيمة وكان يوماً مشهودا.

واستمرت رحلة جهاد ذلك السلطان المجيد، ففي التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٩١هـ أمر بتجهيز الجيوش لفتح قلعة الروم، ثم خرج من القاهرة في ثامن ربيع الثاني، ولحقت به

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١٢٢.

جيوش المظفر تقي الدين صاحب حماة، وخرج بالجيوش جميعاً قاصداً حلب ومنها إلى قلعة الروم وضرب عليها حصاراً عظيماً استخدم فيه نحو ثلاثين منجنيقاً، حتى افتتحها عنوة في حادي عشر رجب ٦٩١هـ، ودخل السلطان الأشرف دمشق منتصراً في الثلاثاء تاسع عشر شعبان، سائقاً الأسرى ومن بينهم ملك قلعة الروم، ورؤوس القتلى على رؤوس الرماح، واحتفل الناس بدخوله ودعوا له، وفي خضم ذلك النصر العظيم بعث السلطان بحملتين إلى كسروان والخزر لتأديبهم إثر ممالئتهم الفرنج على المسلمين.

ونظم الشعراء القصائد الحسان في ذلك الفتح، ومنها قصيدة شهاب الدين محمود:

لك الراية الصفراء يقدمها النصر ::: فمن كيقبادان رآها وكيخسرو
إذاخفقت في الأفق هدّت بنورها ::: هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وفتحٌ أتى في إثر فتح كأنما ::: سماء بدت تترى كواكبها الزهر
فما قلعة الروم التي قد فتحتها ::: وإن عظمت إلا إلى غيرها جسر
فيا أشرف الأملاك فزت بغزوة ::: تحصل منها الفتح والذكر والأجر
ليهنئك عند المصطفى أن دينه ::: توالى له في يمن دولتك النصر
فسر حيثما تختار فالأرض كلها ::: تطيعك والأمصار أجمعها مصر

وفي جمادى الأولى ٦٩٢هـ خرج السلطان بجيوشه من مصر إلى الشام قاصداً فتح قلعة سيس، فدخل دمشق في تاسع جمادى الآخرة، فلما تهيأ للغزو إذا بصاحب سيس يرسل رسله يطلبون الصلح، واتفق الطرفان على أن يتسلم رسل السلطان من صاحب سيس ثلاث قلاع هي بهسنا ومرعش وتل حمدون، ففرح الناس بذلك فرحاً عظيماً، إذ كانت هذه القلاع مصدر أذىً للمسلمين في الماضي.

وقفل السلطان عائداً إلى القاهرة في أواخر رجب سنة ٦٩٢هـ.

وبالرغم من أن الأشرف خليل نجح نجاحًا كبيرًا في السياسة الخارجية والأمور العسكرية لا سيما مع المغول والصليبيين، إلا أنه

لم يستطع ضبط الأمور داخل دولته بنفس الكفاءة التي أظهرها في السياسة الخارجية، فلم يستطع ترويض الأمراء الطامحين في منصب السلطنة، ولم يجد الوسيلة المثلى التي يتعامل بها مع طموحاتهم وأطماعهم، فلم يكد الأشرف يتولي السلطنة حتى بلغه أن حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة يعمل على التخلص منه، فقبض عليه وقتله وصادر أملاكه، ونقل ما تحويه خزائنه إلى بيت المال، كما منح إقطاعه للأمير بدر الدين بيدرا وفوض إليه السلطنة، فأوغرت هذه التصرفات صدور كبار الأمراء [١].

ولم يكن حسام الدين طرنطاي وحده الذي نكل به الأشرف خليل بل لحقه علم الدين سنجر الذي عزل من منصب الوزارة سنة٦٩٠ هـ [٢].

وبعد قليل انقلب الأشرف خليل على نائب السلطنة الجديد بدر الدين بيدرا واستعاد بعض الأراضي التي كان قد استولي عليها وضمها إلى أملاكه [٣].

وعلي الرغم من أن السلطان الأشرف خليل كان ينقم على بيدرا ويأخذ عليه عبثه بأموال الدولة واستيلاء نوابه على متاجر الإسكندرية ووضع أيديهم على كثير من الجهات، فإنه ما لبث أن خشي بأيه فحاول استرضائه بألف دينار بعثها إليه، ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح، واغتنم بيدرا فرصة ركوب السلطان للصيد وسار بصحبة حسام الدين لاجين المنصوري، وشمس الدين قرا سنقر وسيف الدين بهادر المنصوري وغيرهم لتنفيذ المؤامرة التي دبرها للخلاص من الأشرف خليل، وما لبث أن ضربه بالسيف وتبعه سائر الأمراء الذين أجهزوا عليه بالسيوف ومزقوا جسده شر ممزق، وكان ذلك في يوم الاثنين ١٢ من محرم سنة ٦٩٣ هـ،

(١) الدواداري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ٩/ ١٦٧ - ١٦٨.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٧٦١، الدواداري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ٩/ ١٦٧ - ١٦٨.
(٣) المقريزي، السلوك، ١ /٧٨٢ - ٧٨٣.

وتركوا جثمانه ملقي في المكان الذي قتل فيه يومين كاملين حتى حمله الأمير عز الدين أيدمر العجمي ونقله إلى القاهرة حيث دفن بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، وقد قتل الأشرف خليل وهو في الثلاثين من عمره بعد أن حكم نحو ثلاث سنوات [١].

وعلى ما يبدو أن الأشرف خليل قد وقع تحت تأثير وشاية البعض من خاصته ووزرائه الذين زينوا له التنكيل والتقليل من شأن وزراء وأمراء وأهل الحل والعقد في دولة أبيه وخاصة وزيره شمس الدين محمد بن السلعوس [٢] الذي كان مسيطرا على فكر وعقل

(١) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٦، المقريزي، السلوك، ١ / ٧٩٠، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٤، ٣٠.

(٢) كان هذا الوزير يشتغل بالتجارة في دمشق، ثم أخذ يتنقل في بعض الوظائف حتى ولي الحسبة والنظر في ديوان الملك الأشرف في بلاد الشام، فجمع أموالاً كثيرة من ضياع كان قد استأجرها لحسابه، وما أن قدم مصر في أيام السلطان قلاوون، وسعى لدى الأشرف خليل ولي عهد الدولة المملوكية إذ ذاك حتى عينه ناظرًا لديوانه بمصر، غير أنه سرعان ما أساء التصرف وابتز أموال بعض المقطعين مما حدا بالسلطان قلاوون إلى عزله وتعيين فخر الدين بن الخليل بدلا منه.
ولما حل موسم الحج توجه ابن السلعوس إلى الحجاز وظل فيها إلى أن آلت السلطنة إلى الملك الأشرف خليل، الذي بعث في طلبه وكتب إليه بخطه: يا شقير، يا وجه الخير، تعجل بحضورك لتتسلم وزارة الديار المصرية والشامية، ولما تولى الوزارة للأشرف زاد نفوذه في الدولة المملوكية بعد أن ألقى إليه السلطان مقاليد الأمور وجعل من اختصاصه الإشراف على شؤون الأمراء، وعلت مكانته حتى أصبح لا يسير إلا في موكب من الجند وأصحاب الدواوين، وبين يديه القاضيان الشافعي والمالكي يسير أمامهما القاضيان الحنفي والحنبلي، ثم نظار الدولة. يقول النويري: وكان شمس الدين بن السلعوس هذا، تاجراً من أهل دمشق، ولم يكن من التجار المياسير. ولكنه كان يأخذ نفسه بالحشمة والرئاسة. حتى كان التجار فيما بينهم ينعتونه بالصاحب استهزاء به. ثم تعلق بالخدم، وانتمى إلى تقي الدين توبة التكريتي وزير دمشق، في الدولة المنصورية، فاستخدمه في بعض الجهات. وتنقل إلى أن ولي نظر الحسبة بدمشق، في شهر رمضان، سنة سبع وثمانين وستمائة كما تقدم. ثم ولي نظر ديوان الملك الأشرف بالشام، فأظهر الاجتهاد، واستأجر للملك الأشرف ضياعاً بالشام، وعمل له متجراً، وحصل من ذلك أموالاً، فتقدم عند الملك الأشرف، ومال إليه.

الأشرف خليل بن قلاوون حتى أورده المهالك.

* * *

وحضر إلى باب الملك الأشرف، في صفر، سنة ثمان وثمانين وستمائة. واستناب عنه في نظر الحسبة بدمشق والديوان الأشرفي، القاضي تاج الدين أحمد ابن القاضي عماد الدين محمد بن الشيرازي. ولما حضر إلى باب الملك الأشرف، نقله إلى نظر ديوانه نيابة، عوضاً عن تاج الدين بن الأعمى. وخلع عليه خلع الوزارة. واستمر في نظر ديوان الملك الأشرف ووكالته، إلى جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمائة. فاتفق أن الملك الأشرف، خلع عليه خلعة سنية، تشبه خلع الوزراء. فرآه السلطان الملك المنصور، وعليه تلك الخلعة، فأنكر هيئته، وسأل الأمير حسام الدين طرنطاي عنه. فقال: هذا وزير الملك الأشرف، وذكر مساويه للسلطان. فغضب السلطان الملك المنصور لذلك، وأنكره. وأمر بإحضاره، فأحضر بين يديه، فأنكر عليه كونه خدم ولده، بغير أمره، ولا أمر نائبه، ولا وزيره. وأمر السلطان بنزع تلك الخلعة، التي ألبسها، فنزعت. وسلمه إلى شاد الدواوين يومئذ، وهو الأمير زين الدين أحمد الصوابي، وأمر بمصادرته، والإخراق به، وضربه. وأرسل إليه الأمير حسام الدين طرنطاي، أن يوقع به الأهنة والإخراق، ويبادر بضربه. وأرسل إليه الملك الأشرف، إلى مشد الدواوين، يستوقفه عند ذلك، ويتوعده إن ناله منه سوء. فخاف للشد المذكور غائلة الملك الأشرف، وتوقف عن الإخراق به. ورسم عليه في قاعة، كان المشد يجلس فيها، في وقت استراحته. ثم تلطف الملك الأشرف في أمره، مع الأمير حسام الدين طرنطاي، وراسله بسببه. وتكررت رسائله إليه، وإلى غيره في معناه، حتى حصلت الشفاعة فيه عند السلطان، فأطلقه. وأمر السلطان بصرفه، فصرف، ولزم داره. وكانت هذه الواقعة من أضر شيء على الأمير حسام الدين طرنطاي، ومن أكبر أسباب القبض عليه وقتله.

واستمر الصاحب شمس الدين بداره إلى زمن الحج، فتوجه إلى الحجاز الشريف. واتفقت وفاة السلطان الملك المنصور، وسلطنة الملك الأشرف، كما تقدم، فكتب إليه يعلمه بذلك. ويقال: إن السلطان كتب بخطه إليه، بين سطور الكتاب، يا شقير، يا وجه الخير، عجل بالسير، فقد ملكنا.

فلما وصل الأشرف خليل إلى السلطان، فوض إليه الوزارة، ومكّنه من الدولة تمكيناً عظيماً، ما تمكن وزير قبله مثله في دولة الترك. وجرّد في خدمته جماعة من المماليك السلطانية، يركبون في خدمته، ويترجلون في ركابه، ويقفون بين يديه، ويمتثلون أوامره. فعظم بذلك شأنه، وتعاظم في نفسه واستخف بالناس. وتعدى أطوار الوزراء، حتى كان أكابر الأمراء يدخلون إلى مجلسه، فلا يستكمل لهم القيام. ومنهم من لا يلتفت إليه. نهاية الأرب في فنون الأدب، ٨ / ٣٤٦.

العز بن عبد السلام

من مشاهير أعلام المسلمين

سلطان العلماء العز بن عبد السلام

في تاريخنا الإسلامي الزاهر نماذج رائعة من العلماء العاملين الذين أدوا رسالتهم على أكمل وجه، فكانوا نبراساً يستضاء بهم في كل زمان، ونماذج يقتدى بها في وقت تُفتقد فيه القدوة الصالحة، والكلمة الجريئة، والمجابهة الصريحة في سبيل إعلاء كلمة الله...

وشيخنا العز بن عبد السلام هو من ذلك الطراز الفريد الذي يجب أن نستلهم سيرته في حياتنا المعاصرة، فقد كان هذا الرجل أنموذجاً رائعاً للسياسي البارع، والعالم المستنير، والاجتماعي المخلص، المتعبد على طريقة السلف الصالح، فكان أمة في عصره أحيا الله به موات المسلمين.

ولد عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (المعروف بالعز بن عبد السلام) عام ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) في دمشق ونشأ بها، وتفقه على أكابر علمائها، فبرع في الفقه والأصول والتفسير والعربية، حتى انتهت إليه رياسة المذهب الشافعي، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصد بالفتاوى من كل مكان.. فاستحق لقب " سلطان العلماء " بجدارة كما أطلقه عليه تلميذه ابن دقيق العيد.

اشتهر بعلمه وزهده، وتعلم على يد قاضي قضاة (دمشق) الشيخ (جمال الدين بن الحرستاني) وغيره من الأساتذة الكبار، حتى أصبح عالمًا له مكانته المرموقة بين أساتذته.

وكان منصب الخطابة في الجامع الأموي (بدمشق) منصبًا عظيمًا لا يتولاه إلا كبار العلماء، فتولاه (عز الدين بن عبد السلام)

فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصدع بكلمة الحق، ولم يكن يخشى في الله لومة لائم، فحارب كل بدعة، وأمات كل ضلالة، وكان يقول: (طوبى لمن تولى شيئًا من أمور المسلمين، فأعان على إماتة البدع، وإحياء السنن)[1].

تفتحت عينا العز بن عبد السلام على أحداث جسام كان يموج بها العالم الإسلامي، وعاش ثلاثاً وثمانين سنة (ت ٦٦٠هـ) عاصر فيها أحداثاً سياسية مؤلمة.

فقد أدرك انتصارات صلاح الدين الأيوبي المجيدة، واسترداده بيت المقدس من أيدي الصليبيين (٥٨٣ هـ)، وشاهد دولة الأيوبيين في هرمها وآخر أيامها، وشاهد دولة المماليك البحرية في نشأتها وعزّها، وشاهد بعض الحملات الصليبية على فلسطين ومصر، وشاهد الغزوة التترية المغولية الهمجية على الخلافة العباسية في بغداد، وتدميرها للمدن الإسلامية، وشاهد هزيمة التتار في عين جالوت بفلسطين بقيادة سيف الدين قطز سلطان مصر.

شاهد شيخنا كل هذه الأحداث، فأثرت في نفسه، وراعَه تفتت الدولة الأيوبية القوية - قاهرة الصليبيين - إلى دويلات عندما اقتسم أبناء صلاح الدين الدولة بعد وفاته: فدويلة في مصر، ودويلة في دمشق، ودويلة في حلب، ودويلة في حماة، وأخرى في حمص، ودويلة فيما بين النهرين. وبين حكام هذه الدويلات تعشش الأحقاد والدسائس، والصليبيون على الأبواب، والتتار يتحفزون للانقضاض على بلاد الشام ومصر.

إزاء هذه الأوضاع المتردية أخذ العز بن عبد السلام يدعو إلى أن يتحد سلطان الأيوبيين، وتتحد كلمة المسلمين لمواجهة الأخطار

(١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٢٠٩/٨، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٢٠٨/٧، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢٠٣/٥.

المحدقة بهم. وكانت وسيلته في ذلك: الخطب على المنابر، والوعظ ونصح الأمراء، وقول كلمة الحق الجريئة التي ألزم الله بها العلماء..

وفي عام ٦٣٥هـ ولاه السلطان الكامل الأيوبي قضاء دمشق، لكنه لم يستمر فيه طويلا، بل تركه في العام نفسه عندما تولى الحكم (الصالح إسماعيل) الذي كان على خلاف مع الشيخ عز الدين؛ لأن الملك الصالح تحالف مع الصليبيين، وأعطاهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان، وسمح لهم بدخول دمشق، وترك لهم حرية الحركة فيها، وشراء السلاح منها، وفوق ذلك وعد الصليبيين بجزء من مصر إذا هم نصروه على أخيه نجم الدين أيوب سلطان مصر، فلم يرضَ الشيخ عز الدين بهذا الوضع المهين، فهاجم السلطان في خطبه من فوق منبر المسجد الأموي هجومًا عنيفًا، وقطع الدعاء له في خطب الجمعة، وأفتى بتحريم بيع السلاح للصليبيين أو التعاون معهم، ودعا المسلمين إلى الجهاد. ولكن أنّى يستجيب المتشبثون بكراسي الحكم إلى كلمة الحق، والتدبر في العواقب؟

ولما وقع له مع الملك الصالح إسماعيل بدمشق من الخلاف ما وقع، وعزله وألزمه داره - كما تقدم - فارق دمشق، وقصد البيت المقدس.

فوافاه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالغور، فأكرمه ونقله إلى الكرك. وقال له: تقيم عندي بهذا الحصن وأنا لا أخرج عن أمرك. فأقام عنده مدة يسيرة. ثم استأذنه في الخروج، فسأله عن موجب خروجه وكراهة مقامه. فقيل: إنه قال له: هذا بلدٌ صغير، وأنا أحب الانتقال إلى بلدٍ أنشر به ما عندي من العلم.

فأذن له، وتوجه الشيخ إلى القدس، وأقام به. فجاء الملك الصالح إسماعيل بعساكره إلى القدس - وصحبته الفرنج - فأرسل إلى الشيخ بعض خواصه بمنديله، وقال له: ادفع إليه منديلي وتلطف به واستنزله، وعده بعوده إلى مناصبه. فإن أجاب، فائتني به. وإن

خاشنك فاعتقله في خيمةٍ إلى جانبي خيمتي.

فأتاه الرسول ولاطفه، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، وتعود إلى ما كنت عليه وزيادة، أن تقبِّل يد السلطان. فقال له: والله ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلاً أن أقبل يده!! فقال: إنه قد رسم أن أعتقلك إذا لم توافق. فقال: افعلوا ما بدا لكم! فاعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمة السلطان.

وكان يقرأ القرآن والسلطان يسمعه. فقال يوماً لملوك الفرنج: تسمعون هذا الذي يقرأ؟ قالوا: نعم، قال: هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته من الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته عن دمشق فجاء إلى القدس. وقد جددت اعتقاله لأجلكم. فقالوا له: لو كان هذا قسيسنا، لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها! ثم فارق الصالح القدس [1].

واعتقله جنود السلطان في نابلس، وظل في محبسه، حتى جاءت جنود مصر وخلصته، وتوجه الشيخ إلى مصر - وقد سبقته شهرته العلمية وغيرتُه الدينية وعظمته الخُلُقية - فاستقبله سلطانها نجم الدين أيوب، وأكرمه وولاه الخطابة في جامع عمرو بن العاص، وقلّده القضاء في مصر، والتف حوله علماء مصر وعرفوا قدره، وبالغوا في احترامه.. فامتنع عالم مصر الجليل الشيخ زكي الدين المنذري عن الإفتاء بحضوره احتراماً له وتقديراً لعلمه، فقال: " كنا نفتي قبل حضوره، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعيّن فيه " [2].

ورغم المناصب الهامة التي تولاها الشيخ في مصر، فقد التزم بقول كلمة الحق، ومجاهرة الحكام بها في مصر، كما التزم بها من قبل في الشام، فهو لم يسعَ إلى المناصب الرفيعة، وإنما هي التي

(١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٢١٠/٨، السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ١٦١/٢، ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٣٠١/٥.
(٢) حسن المحاضرة ٣١٥/١.

سعت إليه لجدارته بها، ولم يكن يبالي بها إذا رأى أنها تحول دون الصدع بالحق وإزالة المنكرات، فقد تيقن من وجود حانة تبيع الخمور في القاهرة، فخرج إلى السلطان نجم الدين أيوب في يوم عيد إلى القلعة فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته - على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال السلطان: هل جرى هذا؟ فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة! يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون - قال: يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمن أبي. فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة [1].

وعندما سأله أحد تلاميذه لما جاء من عند السلطان - وقد شاع هذا الخبر -: " يا سيدي كيف الحال؟ فقال: يا بني، رأيته في تلك العظمة فأردتُ أن أهينه لئلا تكبر نفسُه فتؤذيه. فقلتُ: يا سيدي، أما خفتَه؟ قال: والله يا بني استحضرتُ هيبة الله تعالى، فصار السلطان قُدّامي كالقط [2].

ولم يتوقف الشيخ مرة عن مصارعة الباطل والصدع بكلمة الحق، مهما كلفه ذلك من المتاعب والتبعات، فقد ذكر أن جماعة من أمراء المماليك - في عهد السلطان أيوب - لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلّغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم فيه، واحتدم الأمر، والشيخ مصمم على أنه لا

(١) طبقات الشافعية الكبرى، ٢١٢/٨.
(٢) المرجع السابق ٢١٢/٨.

يصح لهم بيع ولا شراء ولا نكاح، وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشاط غضباً، فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: نعقد لكم مجلساً، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي.

فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فلم يرجع عن قراره، فجرتْ من السلطان كلمة، فيها غلظة، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار، وأركب عائلته على حمير أُخر، ومشى خلفهم خارجاً من القاهرة، قاصداً نحو الشام، فلم يصل إلى نحو نصف بريد (ستة أميال) إلا وقد لحقه غالب المسلمين، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم.

فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكُك! فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه، فرجع واتفقوا معه أن ينادى على الأمراء؛ لبيعهم.

ثم حاول نائب السلطنة أن يلاطفه، فلم يفد معه، فانزعج النائب وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا.

فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال، فما اكترث لذلك، ولا تغير، وقال: يا ولدي! أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله! ثم خرج كأنه قضاء الله، قد نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره على النائب، يبست يدُ النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله فبكى، وأخذ يسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي خبّر، إيش (أي شيء) تعمل؟ قال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم. قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين. قال: من يقبضه؟ قال: أنا. فتمّ له ما أراد،

ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، وقبضه وصرفه في وجوه الخير [1].

وحدث ذات مرة أن بعض غلمان وزير الصالح، وهو معين الدين ابن الشيخ، بنى بنياناً على سطح مسجد بمصر وجعل فيه طبلخاناه معين الدين، فأنكر عز الدين ذلك ومضى بجماعته وهدم البنيان، وعلم أن السلطان والوزير يغضبان، فاشهد عليه بإسقاط عدالة الوزير، وعزل نفسه عن القضاء، فعظم ذلك على السلطان، وقيل له: اعزله عن الخطابة وإلا شنع عليك على المنبر كما فعل في دمشق، فعزله. وأرسل إليه السلطان لما مرض وقال: عين مناصبك لمن تريد من أولادك؟ فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ففوضت إليه بعده.

وكانت لسلطان العلماء (العز بن عبد السلام) مواقف إيمانية في ميدان الجهاد ضد التتار أعداء الإسلام والمسلمين، وكان له دور فعال في هذا الأمر، ولم يَرْضَ أن تتحمل جماهير الشعب وحدها نفقات الجهاد، وهو يعلم أن السلطان ورجاله لديهم أموال كثيرة فقال: إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وأن يؤخذ كل ما لدى السلطان والأمراء من أموال وذهب وجواهر وحلي، ويبقى لكل الجند سلاحه، وما يركبه ليحارب عليه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ أموال الناس مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال، فلا.

وقد اشترك الشيخ (عز الدين) بنفسه في الجهاد المسلح ضد العدو، وكان دائمًا يحرض السلطان (قطز) على حرب التتار حتى كتب الله له النصر في (عين جالوت) عام ٦٥٨هـ(١٢٦٠م).

وهكذا تمضي حياة العز بن عبد السلام في كفاح متواصل،

(١) المرجع السابق ٢١٦/٨.

وتواضع جم، ونفس أبية مترفعة عن حطام الدنيا، فنال ثوابيْ الدنيا والآخرة...

ويختاره الله إلى جواره، وتمر جنازته تحت القلعة بالقاهرة، وشاهد الملك الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها، فقال لبعض خواصه: " اليوم استقر أمري في الملك، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه لانتزع الملك مني " [1].

رحم الله سلطان العلماء، ورادع السلاطين، ونسأله تعالى أن يرزقنا من أمثاله.

* * *

(١) المرجع السابق، ٢١٥/٨، الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٨٦/١، السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ١٠١/١، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١١٨/٨، على سالم النباهين، مجلة الأمة القطرية، العدد ٢٥، المحرم ١٤٠٣ هـ.

ابن تيمية

من مشاهير أعلام المسلمين

شيخ الإسلام ابن تيمية

لم يقيض الله لداعية إسلامي، من الاهتمام والدراسة بمثل ما قيض سبحانه لشيخ الإسلام ابن تيمية تعريفًا وتأليفًا ومتابعة لما صدر عنه من كتب ورسائل، واهتمامًا من خصومه، حيث يجد المتابع لترجمة حياته التي صدرت في أكثر من أربعين مصدرًا قديمًا، علاوة على الدراسات الحديثة التي تدافع عما تناوله الخصوم لهذا المجاهد بلسانه وقلمه، ونفسه وماله، هو وتلاميذه في كل زمان ومكان، وحتى يومنا هذا.

فما زاده الله بتجريح الخصوم إلا شرفًا واتساع سمعة؛ إذ بقيت آراؤه المدعمة بالدليل العقلي والنقلي ترد على كل قدح يوجه إليه، كما هيأ الله لهذا الشيخ من يعرف قدره، ويدرك سعة علمه، ليذب عنه، بين وقت وآخر؛ عرفانًا بمكانته، ومتابعة لآثاره، ونشرًا لكتبه، بعد الاستيعاب التام لآرائه التي استمدها من معارفه المتعددة، كما وصفه المترجمون لحياته.

وكان من أوفى من ترجم له، الصفدي في كتابه: (الوافي بالوفيات)، حيث نجتزئ من تلك الترجمة قوله: (هو أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني ابن تيمية، الشيخ الإمام، العالم العلامة، المفسر الفقيه، المجتهد الحافظ، المحدث شيخ الإسلام، نادرة عصره، ذو التصانيف والذكاء، والحافظة المفرطة، تقي الدين أبو العباس ابن العالم المفتي شهاب الدين، ابن الإمام شيخ الإسلام، مجد الدين أبي البركات، مؤلف الأحكام، وتيمية

لقب لجده الأعلى.

ولد بحران عاشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة، وتحول به أبوه إلى دمشق سنة سبع وستين وستمائة، وتوفي عام ثمان وعشرين وسبعمائة. وسمع من ابن عبد الدايم، وابن أبي اليسر، والكمال بن عبد، وابن أبي الخير، وابن الصيرفي، والشيخ شمس الدين، والقاسم الإربلي، وابن علان، وخلق كثير. وقرأ بنفسه على جماعة، وانتخب ونسخ عدة أجزاء، و(سنن أبي داود)، ونظر في الرجال والعلل، وصار من أئمة النقد، ومن علماء الأثر، مع التدين، والتأله، والذكر والصيانة، والنزاهة عن حطام هذه الدار، والكرم الزائد. ثم إنه أقبل على الفقه ودقائقه، وغاص على مباحثه، ونظر في أدلته وقواعده وحججه، والإجماع والاختلاف. وكان قوالا بالحق، نهاء عن المنكر، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة، ومسائله المفردة يحتج لها بالقرآن والحديث، أو بالقياس ويبرهنها ويناظر عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فإن كان أخطأ فله أجر واحد، وإن كان أصاب فله أجران. وكان أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيح اللسان، سريع القراءة، تعتريه حدة، ثم يقهرها بحلم وصفح.

توفي محبوسًا في قلعة دمشق على مسألة الزيارة، وكانت جنازته عظيمة

إلى الغاية، دفن في دمشق، صلى عليه قاضي القضاة علاء الدين القونوي) [1].

وقد توسع ابن كثير - رحمه الله - في تاريخه (البداية والنهاية) في وصف يوم وفاته، وما أبداه الناس من حزن ودعاء في دمشق،

(١) الوافي بالوفيات ١ /٥٧ - ٧٤.

ومشاركة البلد بأكملها في تأبينه، رجالا ونساء وأطفالا، وذلك في حوادث سنة ٧٢٨ هـ [١].

أما محمد بن شاكر الليثي في كتابه: (فوات الوفيات) فإنه أورد بعضًا من الحكايات عنه، التي تنبئ عن فضله، وسعة علمه، ومن ذلك قوله: (حكي أن ابن تيمية قد شكا إليه إنسان من قطلو بك الكبير، وكان المذكور فيه جبروت، وأخذ أموال الناس واغتصابها، وحكاياته في ذلك مشهورة، فلما دخل إليه الشيخ، وتكلم معه في ذلك قال: أنا الذي كنت أريد أن أجيء إليك؛ لأنك رجل عالم زاهد - يعني: يستهزئ به - فقال له الشيخ: لا تعمل على دركوان [٢]ثم أردف الشيخ قائلا: موسى كان خيرا مني، وفرعون كان شرًّا منك، وكان موسى كل يوم يجيء إلى باب فرعون مرات، ويعرض عليه الإيمان... وكان قوالا بالحق، نهاء عن المنكر) [٣].

وقال الزركلي: ولد في حران، وتحول به أبوه إلى دمشق، فنبغ واشتهر، وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها، فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية، ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ، واعتقل بها سنة ٧٢٠ هـ وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلا بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته، كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان.

وفي الدرر الكامنة: أنه ناظر العلماء، واستدل وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرس وهو دون العشرين [٤].

(١) انظر (البداية والنهاية)، ج ١٤ ص ١٣٥ - ١٤١.
(٢) كلمة مأخوذة عن الفارسية: دركوان، بمعنى: الخداع والحيلة.
(٣) فوات الوفيات، والذيل عليها لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس ١ / ٧٤، ٧٥.
(٤) الأعلام للزركلي ١ / ١٤٤.

مكانته العلمية:

نشأ ابن تيمية، ومخايل الذكاء، وسيماء النجابة بادية عليه منذ حداثة سنه، وأعانه الله على حب العلم؛ لأنه ترعرع في بيت علم، فختم القرآن صغيرا، ثم أقبل على الفقه والحديث، وقد أعجب به شيوخه في قوة الحافظة والنباهة، ولقد وصفه كل من ترجم لحياته بصفات تدل على مكانته العلمية، حيث جمع كثيرًا من العلوم، وتبحر فيها، فهو مفسر وفقيه، وهو أصولي ومحدث، وهو ماهر في الحوار والجدل، وهو مفحم للفلاسفة في جداله معهم؛ لسعة مداركه في علم المنطق.

وكبرهان على ما منحه الله من حافظة نادرة، فقد روي أن أول كتاب حفظه في الحديث وهو لا يزال صغيرا، كتاب (الجمع بين الصحيحين) للحميدي، كما قال الشيخ الحافظ سراج الدين أبو حفص عمر.

وعلى مشاهير عصره - في جميع الفنون - تتلمذ ابن تيمية، حيث قال ابن قدامة حسبما قال الإمام مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى عام ١٠٣٣ هـ، في كتابه: (الكواكب الدرية في مناقب الإمام المجتهد ابن تيمية): وشيوخ ابن تيمية الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته: معجم الطبراني الكبير، وعني بالحديث، وقرأ ونسخ وانتقى، وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ في العربية، وأخذ بكامل كتاب سيبويه حتى فهمه، وبرع في النحو، وأقبل على التفسير إقبالاً كليًا، حتى حاز قصب السبق، وأحكم أصول الفقه، وغير ذلك.

هذا كله وهو - بعد - ابن بضع عشرة سنة، فانبهر الفضلاء من

فرط ذكائه وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه [١].

كما قال عنه ابن عبد الهادي: (لا أعلم أحدًا من متقدمي الأئمة ولا متأخريها، جمع مثلما جمع ابن تيمية، ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريبًا من ذلك، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه، وكثير منها صنفه في الحبس، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب) [٢].

وقد أثنى على منزلته البزار - المتوفى عام ٧٤٩ هـ - أي بعد وفاة ابن تيمية بواحد وعشرين سنة - الذي عاصره، وعرفه عن كثب، فنافح عنه في كتابه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) وأعطاه ما يستحق من العرفان بمكانته، والتقدير لعلمه وفضله، وكان مما قاله عنه: وقل كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ، وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء، أو يستمع لشيء غالبًا، إلا ويبقى على خاطره، إما بلفظه أو معناه، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره.

فإنه لم يكن له مستعارًا، بل كان له شعارًا ودثارًا، لم يزل آباؤه أهل الدراية التامة، والنقد والقدم الراسخ في الفضل، لكن جمع الله له ما خرق بمثله العادة، ووفقه في جميع عمره لأعلام السعادة، وجعل مآثره لإمامته أكبر شهادة، حتى اتفق كل ذي عقل سليم، أنه ممن عنى نبينا ﷺ بقوله: «**إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة، من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**» [٣]، فلقد أحيا الله به ما كان قد درس من شرائع الدين، وجعله حجة على أهل عصره أجمعين.

أما غزارة علومه فمنها:

ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد، واستنباطه لدقائقه، ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاده بدلائله، وما أودعه الله تعالى

(١) الكواكب الدرية، ص ٥٤.

(٢) الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ، ص ٦.

(٣) سنن أبي داود، الملاحم (٤٢٩١).

فيه من عجائبه، وفنون حكمه، وغرائب نوادره، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحته، فإنه فيه الغاية التي ينتهى إليها، والنهاية التي يعول عليها.

ولقد كان إذا قرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم، يشرع في تفسيرها، فينقضي المجلس بجملته، والدرس برمته، وهو في تفسير بعض آية منها.

ولقد أملى في تفسير قوله تعالى:{قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١} [الإخلاص: ١]، مجلدًا كبيرًا وقوله تعالى:{ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥} [طه: ٥] نحو خمس وثلاثين كراسة، ولقد بلغني أنه شرع في جمع تفسير لو أتمه لبلغ خمسين مجلدا.

أما معرفته وبصره بسنة رسول الله ﷺ، أقواله وأفعاله وقضاياه، ووقائعه وغزواته، وسراياه وبعوثه، وما خصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه، وبقية المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم، في أقوالهم وأفعالهم وقضاياهم، وفتاويهم وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خصوا به من بين الأمة، فإنه كان رحمه الله، من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضارًا لما يريده منه، فإنه قل أن ذكر حديثًا في مصنف أو فتوى، أو استشهد به، أو استدل به، إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح، أو الحسن أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة، وقل أن يسأل عن أثر إلا وبين في الحال حاله، وحال أمره وذكره.

ومنها: ما منحه الله تعالى من معرفة اختلاف العلماء ونصوصهم، وكثرة أقوالهم واجتهادهم في المسائل، وما روي عن كل منهم، من راجح ومرجوح، ومقبول ومردود، في كل زمان ومكان، وبصره الصحيح الثاقب الصائب للحق مما قالوه ونقلوه، وعزوه ذلك إلى الأماكن التي بها أودعوه، حتى كان إذا سئل عن

شيء من ذلك، كأن جميع المنقول عن الرسول ﷺ وأصحابه والعلماء فيه، من الأولين والآخرين، متصور مسطور بإزائه، يقول منه ما شاء الله، ويذر ما يشاء، وهذا قد اتفق عليه كل من رآه، أو وقف على شيء من علمه، ممن لم يغطى عقله الجهل والهوى [1].

أما الواسطي المعروف بابن شيخ الحزاميين المتوفى عام ٧١١ هـ، فإنه كان من أسرة صوفية متوغلة في الضلالة، وأبوه شيخ طائفة كبيرة، ولكنه قد عرف العقيدة الصحيحة؛ لتأثره بابن تيمية تلمذة وقراءة لكتبه، ومتابعة لحالته، وقد ألف كتابًا سماه: (التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار، في الثناء على شيخ الإسلام ابن تيمية، والوصاية به)، فقال بعد أن أوضح حال زمانه، وما فيه من المنكرات: ومن العجب أن كلا منهم يدعي أنه على دين الرسول ﷺ حتى كشف الله لنا، ولكم بواسطة هذا الرجل - ابن تيمية - عن حقيقة دينه، الذي أنزله من السماء، وارتضاه لعباده.

واعلموا أن في آفاق الدنيا أقوامًا يعيشون أعمارهم بين هذه الفرق، يعتقدون أن تلك البدع حقيقة الإسلام، فلا يعرفون الإسلام إلا هكذا.

فاشكروا الله الذي أقام لكم في رأس السبعمائة من الهجرة من بين لكم أعلام دينكم، وهداكم الله به وإيانا إلى نهج شريعته، وبين لكم بهذا النور المحمدي ضلالات العباد وانحرافاتهم، فصرتم تعرفون الزائغ من المستقيم، والصحيح من السقيم، وأرجو أن تكونوا أنتم الطائفة المنصورة، الذين لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، وهم بالشام إن شاء الله تعالى [2].

---

(١) انظر: الأعلام العلية، ص ٢٢ - ٢٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن ١٣/٤٥، والاستسقاء ٢/٥٢١، ومسلم في الإمارة ٣ /١٥٢٣، ١٥٢٤، من حديث معاوية رضي الله عنه بلفظ: لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم وخذلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون

ثم إذا علمتم ذلك، فاعرفوا حق هذا الرجل الذي هو بين أظهركم وقدره، ولا يعرف حقه وقدره إلا من عرف دين الرسول ﷺ وحقه وقدره، فمن وقع دين الرسول ﷺ من قلبه بموقع يستحقه، عرف حق ما قام به هذا الرجل بين أظهر عباد الله، يقوم معوجهم، ويصلح فسادهم، ويلم شعثهم جهد إمكانه، في هذا الزمان المظلم، الذي انحرف فيه الدين، وجهلت السنن، وعهدت البدع، وصار المعروف منكرا والمنكر معروفا، والقابض على دينه كالقابض على الجمر، فإن أجر من قام بإظهار هذا النور في هذه الظلمات لا يوصف، وخطره لا يعرف. فشيخكم - أيدكم الله تعالى - عارف بأحكام أسمائه وصفاته الذاتية، فالله الله في حفظ الأدب معه، والانفعال لأوامره، وحفظ حرماته في الغيب والشهادة، وحب من أحبه، ومجانبة من أبغضه وتنقصه، ورد غيبته، والانتصار له في الحق. واعلموا - رحمكم الله - أن هنا من سافر إلى الأقاليم - يعني نفسه - وعرف الناس وأذواقهم، وأشرف على غالب أحوالهم، فوالله، ثم والله، ثم والله، لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم - يعني ابن تيمية - علمًا، وعملاً، وحالاً وخلقًا واتباعًا وكرمًا، وحلمًا في حق نفسه، وقيامًا في حق الله عند انتهاك حرماته، أصدق الناس عقدًا وأصحهم علمًا، وعزمًا وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة، وأسخاهم كفًّا، وأكملهم اتباعًا لنبيه ﷺ)[1].

وما ذلك إلا أن مكانة شيخ الإسلام ابن تيمية العلمية، كانت مثار الانبهار لمن عرفه عن كثب، أو تابع مجهوداته العلمية، أو المناظرات التي دارت بينه وبين مناوئيه، وإن ألف غرف من بحر المعرفة، وإن اتجه إلى موضوع أشبعه، وإن جابه علية المجتمع، كان ذلك الشجاع الذي يجهر بكلمة الحق، ولا يخشى في الله لومة

على الناس.

(١) التذكرة والاعتبار ص ٤٧ - ٥٠.

لائم، وإن اعتدي على العقيدة صال ونافح، وقرع الحجة بالحجة، وإن انتهكت السنة المحمدية انتصر لها، وبدأ التطبيق بنفسه، وأظهر الدليل الواضح الذي لا يقبل المداخل، إلا عن تعمد الكذب أو لرغبة الأهواء، وإن أوذي في سبيل الله، وما يدعو إليه ويدافع عنه صبر واستسلم.

أما إذا تطاول أعداء الإسلام على ديار المسلمين فإن ابن تيمية شجاع في ميدان القتال، مؤثر في الدعوة إلى الجهاد، مقدام عندما يحمي الوطيس، إذ طالما ضرب النموذج بنفسه في كل ميدان، يحاول فيه الأعداء النيل من الإسلام، فهو مجاهد بنفسه، وعلمه، ومنافح بلسانه وقلمه، يترسم خطى الصحابة والسلف الصالح من هذه الأمة في كل أمر.

آثاره العلمية:

إن عالمًا بمثل مكانة ابن تيمية، ومجاهدا بمثل حماسته، لجدير بالدراسة والاهتمام، حتى قيل: إنه لم يتزوج طوال عمره، حيث شغله الدفاع عن دين الإسلام، ودفاع الأعداء المتكالبين على ديار الإسلام، ففي الشرق بعدما زحف التتار على بغداد، وخربوا قاعدة المسلمين العلمية، وانتهت بذلك الدولة العباسية، اتجهوا صوب الشام؛ رغبة في الاستيلاء عليها، ثم الزحف على مصر، وفي الغرب قوى الصليبيين تبذل جهودها للتمكن مرة أخرى من الشام، بعد أن انتصر عليهم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وفي الشمال الدولة العثمانية لم ترسخ أقدامها في بلاد الشام، واتجهت قواها إلى التوسع شرقًا وغربًا، وفي الجنوب نرى الجزيرة العربية منبع الرسالة قد أغفلت، فدب الجهل في البداوة من جديد، اللهم إلا في الحرمين وبعض الحواضر، حيث يوجد بعض العلماء.

وأما في الوسط حيث يوجد ابن تيمية في الشام، والعز بن عبد السلام في مصر، فإن الحال لم تكن بأحسن من غيرها، حيث دب

الوهن في النفوس، وانتشرت البدع، وكثر القائلون بغير علم،... في هذه الأجواء المضطربة، والفتن والبدع التي ظهرت، كان لا بد أن يشمر هذا العالم عن ساعديه، ويبذل هذا المجاهد ما يستطيع من حماسته، كي يؤثر فيمن حوله، تعليما وتدريسا، وتأليفا ومناظرة. ولذا يعتبر مجموع الفتاوى الذي حرص على تجميعه وإخراجه الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله - وخرج في سبع وثلاثين مجلدا - نموذجا لآثار ابن تيمية العلمية، بما فيه من علم واسع، ومعارف متعددة، وإجابات سديدة وموفقة، وقد طبع لأول مرة بالرياض، منذ أكثر من ثلث قرن.

ولقد بلغ من متابعة العلماء لجهوده العلمية، وثنائهم على ما ترك من علوم ومعارف، تتمثل في مصنفاته، أن عجزوا عن إحصاء كتبه..

فهذا ابن الزملكاني يقول: (ولقد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم والتبيين، وقد ألان الله له العلوم، كما ألان لداود الحديد) [1].

وهذا الحافظ الذهبي يقول عن مؤلفاته: (وما أبعد أن تكون تصانيف ابن تيمية إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد) [2].

وهذا الشيخ ابن عبد الهادي بن قدامة يقول: (وللشيخ - رحمه الله - من المصنفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل، وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضبط..).

ثم قال: (ولا أعلم أحدًا من متقدمي الأئمة ولا متأخريها، جمع مثل ما جمع... فمن ذلك ما جمعه في تفسير القرآن العظيم، وما جمعه من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم، وذلك في أكثر من ثلاثين مجلدًا، ولو كتب كله لبلغ خمسين مجلدًا،

(١) تاريخ ابن الوردي، ٤٠٦/٢.
(٢) تاريخ ابن الوردي، ٤٠٩/٢، والكواكب الدرية، ص٦٥.

وقد بيض أصحابه بعض ذلك، وكثيرًا منه لم يكتبوه)، وكان - رحمه الله - يقول: (ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم إبراهيم، علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي بالتراب، وأسأل الله تعالى وأقول: يا معلم إبراهيم، فهمني) [(١)].

كما ذكر العلماء والباحثون في الثناء على مكانة ابن تيمية العلمية الشيء الكثير، فهذا ابن دقيق العيد - المتوفى عام ٧٠٢هـ - يقول بعد ما اجتمع بابن تيمية سنة ٧٠٠هـ في مصر: (لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلا كل العلوم بين عينيه، يأخذ ما يريد، ويدع ما يريد) [(٢)].

وأما ابن سيد الناس اليعمري، المتوفى عام ٧٣٤هـ فقد قال بعد أن ذكر ترجمة المزي: (وهو الذي حداني على رؤية الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين، فألفيته ممن أدرك من العلوم حظًّا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظًا. إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه، وذو روايته [(٣)].

وأما الذهبي الإمام الحجة في حكمه وأقواله على الرجال وتراجمهم، المتوفى عام ٧٤٨هـ فقد أثنى كثيرا على شيخه ابن تيمية، واعتبره في مواقع كثيرة من تآليفه نابغة عصره، وفريد زمانه في سائر علوم المعرفة، ونجتزئ من كلامه الطويل عنه، وإعجابه به ما يلي: (كان ابن تيمية آية في الذكاء، وفي سرعة الإدراك، رأسًا في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بحرا في النقليات، هو في زمانه فريد عصره؛ علمًا وزهدًا، وشجاعة وسخاء، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وكثرة تصانيف، وقرأ وحصل، وبرع

(١) الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ص٧٧، ٧٨.
(٢) الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ص٥٦، وتاريخ ابن الوردي، ٤ / ٤١١.
(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢ /٣٩٠، ٣٩١، والكواكب الدرية، ص٥٧، ٥٨.

في الحديث والفقه، وتأهل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة، وتقدم في علم التفسير والأصول، وجميع علوم الإسلام أصولها وفروعها، ودقها وجلها، فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سمى المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلهم وبخسهم، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم، وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كلمي، أو ينبه على شأوه قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه، ومحنه وتنقلاته، يحتمل أن ترصع في مجلدتين، فالله تعالى يغفر له ويسكنه فسيح جناته، فإنه كان رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين، رأسا في العلم يبالغ في أمر قيامه بالحق والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مبالغة ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد، ولا لحظتها من فقيه.

وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرس وله نحو العشرين سنة، وصنف التصانيف، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله المصنفات الكبار، التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله، وصحته وسقمه، فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين - فضلا عن المذاهب الأربعة - فليس له فيه نظير، وأما معرفته بالملل والنحل، والأصول والكلام، فلا أعلم له فيه نظيرًا، ويدري جملة صالحة في اللغة، وعربيته قوية جدًّا، ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب، وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف ويفوق النعت، وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل، وفيه زهد وقناعة

باليسير في المأكل والملبس) [١].

ويقول مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى عام ١٠٣٣هـ: (ولقد سئل يوما عن الحديث: " لعن الله المحلل والمحلل له " [٢]، [٣] فلم يزل يورد فيه وعليه، حتى بلغ كلامه فيه مجلدا كبيرا.

وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألفه في ذلك من نقض أقوالهم، وتزييف أمثالهم وأشكالهم، وإظهار عوارهم، وانتحالهم، وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية، بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية، والدلائل النقلية، والتوضيحات العقلية فمن العجب العجيب) [٤].

ويقول تلميذه الحافظ عمر بن على البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ: (وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالبًا أحد؛ لأنها كثيرة جدًّا، كبارًا وصغارًا، وهي منشورة في البلدان، فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه:

فمنها: ما يبلغ اثني عشر مجلدا كـ(تلخيص التلبيس على أساس التقديس) وغيره.

ومنها: ما يبلغ سبع مجلدات كـ(الجمع بين العقل والنقل).

ومنها: ما يبلغ خمس مجلدات ومنها: (منهاج الاستقامة والاعتدال) ونحوه.

ومنها: ما يبلغ ثلاث مجلدات كـ(الرد على النصارى) وشبهه.

ومنها: مجلدان كـ(نكاح المحلل)، (وإبطال الحيل)، و(شرح

(١) انظر: العقود الدرية، ص٢٢ - ٢٤.

(٢) مسند أحمد بن حنبل، ٤٤٨/١.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، ٢ / ٢٢٧.

(٤) الكواكب الدرية، ص٨٢.

العقيدة الأصبهانية).

ومنها: مجلد ودون ذلك.. وهذان القسمان من مؤلفاته، فهي كثيرة جدًّا لا يمكنني استقصاؤها، لكن أذكر بعضها استئناسًا:

- كتاب: (تفسير سورة الإخلاص) مجلد.

كتاب: (الكلام على قوله تعالى:{ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥} [طه: ٥] مجلد.

- كتاب (الصارم المسلول على شاتم الرسول) مجلد.
- كتاب: (الفرق المبين بين الطلاق واليمين).
- كتاب: (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان).
- كتاب: (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم).
- كتاب: (الكلم الطيب).
- كتاب: (إثبات الكمال).
- كتاب: (الرد على تأسيس التقديس).
- كتاب: (نقض أقوال المبتدعين)
- كتاب: (الرد على النصارى).
- كتاب: (إبطال الحيل ونكاح المحلل).
- كتاب: (شرح العقيدة الأصبهانية). - كتاب: (الفتاوى).
- كتاب: (الدر الملتقط).
- كتاب: (أحكام الطلاق).
- كتاب: (الرسالة).
- كتاب: (اعتقاد الفرق الناجية).
- كتاب: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).
- كتاب: (تقرير مسائل التوحيد).

- كتاب: (الاستغاثة والتوسل).
- كتاب: (المسائل الحموية).
- كتاب: (المسائل الجزرية).
- كتاب: (المسائل المفردة).

ثم قال: ولا يليق هذا المختصر بأكثر من هذا القدر من مؤلفاته، وإلا فيمكن تعداد ما ينيف على المائتين، لكن لم نر الإطالة بذكره)[1].

وكان من أوفى من ذكر مؤلفاته رحمه الله، تلميذه: ابن قيم الجوزية في رسالته عنه، والصفدي في: (الوافي بالوفيات)، وابن رجب في: (طبقات الحنابلة).

ومن المتأخرين فند عبد السلام هاشم حافظ في كتابه عن ابن تيمية الذي طبع للمرة الأولى عام ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م حينما قال: (ومع بداية هذا القرن - الرابع عشر الهجري - بدأت تظهر مؤلفات الإمام ابن تيمية في طبعات مختلفة في الهند والشام ومصر، ولقد طبع معظم كتبة التي احتفظ لنا بها التاريخ في مجلدات تضم عديدًا من الرسائل، والكتب الصغيرة.

فهناك مجلد ضخم باسم: (مجموعة الرسائل الكبرى) في جزأين طبعا بمصر سنة ١٣٢٣هـ.

الجزء الأول في ٤٧٥ صفحة، ويحتوي على هذه التصانيف:

١ - رسالة الفرقان بين الحق والباطل.

٢ - معارج الوصول إلى معرفة الأصول.

٣ - التبيان في نزول القرآن.

٤ - الوصية في الدين والدنيا.

(١) انظر كتاب: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) ص ٢٥ - ٢٧.

٥ - رسالة النية في العبادات.

٦ - العرش هل هو كري أم لا؟

٧ - الوصية بما جاء به رسول الله ﷺ، وبيان فضل أمته على سائر الأمم.

٨ - اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، وهذه الرسالة عرفت باسم (العقيدة الواسطية) وطبعت كثيرًا.

٩ - الإرادة والأمر.

١٠ - المناظرة في العقيدة الواسطية.

١١ - العقيدة الحموية الكبرى.

١٢ - السؤال عن الاستغاثة برسول الله ﷺ هل جائزة أم محرمة؟ والجواب عن ذلك.

- أما المجلد الثاني ففي ٤٠٥ صفحات، ويضم الكتب التالية:

١ - رسالة الإكليل في المتشابه والتأويل.

٢ - في الجواب عن القائل: كل الحلال متعذر لا يمكن وجوده في هذا الزمان.

٣ - مراتب الإرادة.

٤ - في قوله ﷺ :«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» [(١)].

٥ - القضاء والقدر.

٦ - الاحتجاج بالقدر.

٧ - درجات اليقين.

٨ - بيان الهدى والضلال.

٩ - في سنة الجمعة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم (١٨٩٣)، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤١٠).

١٠ - تفسير المعوذتين.

١١ - بيان العقود المحرمة.

١٢ - في معنى القياس.

١٣ - حكم السماع والرقص.

١٤ - الكلام على الفطرة.

١٥ - الكلام على القصاص.

١٦ - في مناسك الحج.

١٧ - الكلام على رفع الحنفي يديه في الصلاة.

- وفي عام ١٣٦٨هـ صدر أيضا كتاب مفرد باسم: (مجموعة رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية) في ١٥٤ صفحة، بآخره رسالة لأحد تلاميذه، والكتاب يحتوي على أربعة مصنفات، أحدها مكرر من مجموعة الرسائل السابقة، وهذه الثلاث هي:

١ - رأس الحسين رضي الله عنه، بحث حول ما أشيع كذبًا عن نقل رأس الإمام الحسين إلى مصر.

٢ - الرد على ابن عربي والصوفية، وهو الكتاب المسمى: (الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم).

٣ - قتال الكفار ووجوبه.

٤ - أما المكرر فهو: بيان العقود المحرمة، الوارد في رقم (١١) أعلاه.

- وأما الرسالة التي جاءت في ختام الكتاب فهي لتلميذه الإمام الشيخ: شهاب الذين أحمد بن مري، واسمها: (الحث على جمع كتب الشيخ ونشرها)، وقد أرسل بها إلى علماء الحنابلة بدمشق يعزيهم في فقد الإمام، ويستحثهم على العناية بمصنفاته ونشرها.

- كذلك صدر مجلد يضم كتابين من مؤلفات الإمام أحمد، هما:

كتاب: (الجواب الباهر في زوار المقابر) في ٩٠ صفحة، وهو إجابة عن استفسار من الملك الناصر، وسائر الأكابر لمعرفة الحال، وما أفتى به في هذا الموضوع.

والكتاب الثاني: الرد على الأخنائي في ٢٣٢ صفحة، وهو: (استحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية)، وقد كتب الإمام هذا الرد على ما جاء حول هذه الزيارة لقاضي القضاة الأخنائي بعد أن ألح عليه الكثيرون، في ضرورة إيضاح الحقيقة، ورد الافتراءات التي تقوى بها القاضي المذكور.

- ومن كتب الإمام الكبيرة: (مجموعة الفتاوى)، التي ظهرت في طبعتها الأولى سنة ١٣٢٦ هـ في خمسة أجزاء ضخمة تزيد على ألفين وخمسمائة صفحة، وقد تضمنت كل مناظراته، وآرائه، وأجوبته عن كثير من المسائل والفتاوى، ولقد طبع كتابه: (الاختيارات العلمية)، ملحقًا بالجزء الرابع، ومن هذه المجموعة الهائلة.

- كذلك كتابه النقدي الضخم: (منهاج السنة النبوية)، وأول ما طبع سنة ١٣٢١هـ، وعلى هامشه كتابة المرسوم: (بيان موافقة المعقول لصحيح المنقول).

أما كتبه المعروفة الأخرى، فنذكر منها ما قد طبع أغلبه:

١ - السياسة الشرعية في أمور الدولة، طبع سنة ١٣٧٠هـ.

٢ - كتاب: مجموعة تفسير لست من سور القرآن الكريم هي: الأعلى، الشمس، الليل، العلق، الكافرون، البينة، طبع في بومباي بالهند سنة ١٣٧٣هـ الموافق لعام ١٩٥٤م، بعد أن صححه وعلق عليه، ثم قدمه بالإنجليزية السيد عبد الصمد شرف الدين.

٣ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، طبع في أربعة أجزاء عام ١٣٢٢هـ.

٤ - المعجزات والكرامات، طبع سنة ١٣٤٩هـ.

٥ - نقض المنطق، طبع بمصر عام ١٣٧٠هـ في ٢١٠ صفحات.

٦ - الرد على المنطقيين، طبع في بومباي بالهند سنة ١٣٦٨هـ في ٥٥٠ صفحة.

٧ - نظرية العقد - وهو كتاب: العقود، طبع عام ١٣٤٩هـ.

٨ - مذهب السلف القويم في تحقيق مسألة كلام الله الكريم، طبع سنة ١٣٤٩هـ في٦٥ صفحة.

٩ - رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

١٠ - الواسطة بين الحق والخلق.

١١ - الرسالة البعلبكية.

١٢ - الصراط المستقيم ومجانبة أصحاب الجحيم.

١٣ - رسالة في حقيقة الصيام. ١٤ - العقيدة التدمرية.

١٥ - العقيدة المراكشية. ١٦ - المسألة النصيرية.

١٧ - سؤال عن صحة مذهب أهل المدينة.

١٨ - قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.

١٩ - مسألة الكنائس. ٢٠ - النبوات.

٢١ - الجامع في السياسة الإلهية.

٢٢ - كتاب الرد على النصارى.

٢٣ - أربعون حديثا برواية ابن تيمية.

٢٤ - جمع كلمة المسلمين.

٢٥ - الكلام على حقيقة الإسلام والإيمان.

٢٦ - نقد تأسيس الجهمية.

٢٧ - تخجيل أهل الإنجيل.

٢٨ - الصارم المسلول على شاتم الرسول.

٢٩ - نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان.
٣٠ - الرسالة المدنية في المجاز والحقيقة.
٣١ - إيضاح الدلالة في عموم الرسالة.
٣٢ - رسالة في سجود القرآن.
٣٣ - رسالة في سجود السهو.
٣٤ - رسالة في أوقات النهي والنزاع.
٣٥ - رسالة في تنوع العبادات.
٣٦ - رسالة العبودية.
٣٧ - رسالة الحسبة في الإسلام.
٣٨ - رسالة المظالم المشتركة.
٣٩ - رسالة في زيارة بيت المقدس.
٤٠ - جوامع الكلم الطيب في الأدعية والأذكار.
٤١ - كتاب الفرق المبين بين الطلاق واليمين.
٤٢ - مسألة الحلف بالطلاق.
٤٣ - مسألة العلو.
٤٤ - الرسالة القبرصية [١].
٤٥ - تفسير سورة النور.
٤٦ - بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية.
٤٧ - حقيقة مذهب الاتحاديين، أو وحدة الوجود وبطلانه بالبراهين النقلية والعقلية.
٤٨ - تفصيل الإجمال فيما يجب لله من صفات الكمال.
٤٩ - قصيدة في مسألة القضاء والقدر [٢].

(١) كان الإمام قد كتب بهذه الرسالة إلى (سرجوان) ملك قبرص النصراني، يبين له فضل الإسلام، ويدعوه لرعاية المسلمين الذين تحت حكمه.
(٢) انظر كتاب: (ابن تيمية) لعبد السلام هاشم حافظ، ص ١٥٢ - ١٥٧.

هذا وإن غالبية هذه الكتب يشملها مجموع فتاوى ابن تيمية الذي أشرنا إليه، وقام عليه جمعًا ومتابعة وطباعة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي بمعاونة ابنه محمد.

- كما خرج بطبعة كاملة ومحققة عن طريق جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كتابه القيم في أحد عشر مجلدًا: (درء تعارض العقل والنقل).

- وخرج عن طريق الجامعة أيضا في سبعة مجلدات بعد التحقيق كتابه:

(منهاج السنة).

ومن هذا ندرك أنه رحمه الله مكتبة كاملة في فنون المعرفة، التي سخرها للدفاع عن دين الإسلام، والدعوة إليه، ومحاربة الشوائب التي يراد إدخالها عليه؛ عقيدة وعملا.

شجاعته في الحق:

اتصف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بقوة القلب، ورباطة الجأش في كل موقف يمر به مع قوة إيمان، وحجة دامغة، مما نتج عنه شجاعة متناهية في سبيل عقيدة الإسلام، ومحاربة أعداء دين الله، وأهل البدع؛ بالبدن واللسان، وقوة الحجة.

وقد تحدث تلميذه البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ عن مظاهر عديدة من شجاعته في كتابه الذي خصه به، وسماه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية)، ومما قاله: (كان رضي الله عنه، من أشجع الناس وأقواهم قلبًا، ما رأيت أحدًا أثبت جأشًا منه، ولا أعظم عناء في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم. وأخبر غير واحد: أن الشيخ - رحمه الله - كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم، وقطب ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعا أو رقة أو جبانة، شجعه وثبته وبشره، ووعده بالنصر والظفر والغنيمة، وبين له فضل الجهاد

والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة، وكان إذا ركب الخيل يتحنك[1]، ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيرا أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

وأخبرني من لا أتهمه: أن الشيخ - رحمه الله - حين وشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد، أحضره بين يديه، قال: فكان من جملة كلامه: إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك، فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة، وقلب ثابت، وصوت عال سمعه كثير ممن حضر: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسين، فتبسم السلطان لذلك، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إلى كاذب. واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل؛ من كثرة ما يلقى إليه في حقه من الأقاويل الزور والبهتان، ممن ظاهر حاله للطغام: العدالة، وباطنه: مشحون بالفسق والجهالة) [2] ومن قوته في الحق، وصدعه بالدعوة هدى الله قادة المغول للإسلام؛ لأن صدقه مع الله منحه الشجاعة والجهر بالحق، وجعل الله له بذلك القبول في القلوب.

وفي الدفاع عن دمشق، وفتح عكا، ومعركة شقحب وغيرها من المعارك، كان المثل النادر بالشجاعة والقوة، وإذا تفقد من معه فوجدهم ملتزمين بشرع الله، وحريصين على دينهم، كان يقول لهم:

سننتصر على الأعداء، فيقول له بعضهم: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا؛ لأن الله أمرنا بطاعته والاستعداد،

(١) التحنك هو: وضع العمامة تحت الذقن ولف طرفيها على الرأس.

(٢) انظر: (الأعلام العلية) الفصل الحادي عشر، ص ٦٣ - ٦٦، والفصل الثاني عشر ص ٦٧، ٦٨.

فأطعناه فيما أمر، واستعدينا لملاقاة العدو.

وفي حواره مع السلطان غازان - أحد ملوك التتار - لما ظهر على دمشق، ما يدل على قوة بأسه، وعدم خوفه من سطوته، وكان مما قاله حسبما ذكر الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي المتوفى عام ١٠٣٣هـ في كتابة: (الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية)، قال الشيخ ابن تيمية للترجمان: (قل للسلطان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون - على ما بلغنا - فغزوتنا، وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجرت. والسلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل: من هذا الشيخ؟ فإني لم أر مثله، ولا أثبت قلبًا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقيادًا لأحد منه... ثم خرج من بين يدي السلطان مكرمًا معززًا بحسن نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين، فبلغه الله ما أراده، وكان أيضًا سببًا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهليهم) [١].

وقد ذكر عبد السلام حافظ عنه مواقف كثيرة في شجاعة القتال الميداني، والتصدي للتتار، وفي قوة العزم، ومحاربة كل دخيل على منهج الإسلام السليم: من عقائد ومفاسد، وضلال وغواية، إلى درء للمحرمات، ومقاومة مصادرها، ومن ذلك:

في يوم ١٧ رجب عام ٦٩٩هـ نفذ الإمام عزمه على القضاء على آلات الشرب المحرم، فخرج بنفسه مع بعض رفاقه، يدورون على الحانات ومحال الخمور، يريقونها، ويكسرون آنيتها، بل ويعزرون أصحابها [٢].

وفي شهر رجب سنة ٧٠٤هـ قصد الإمام مسجد التاريخ، يرافقه

(١) الكوكب الدرية، ص٩٣، ٩٤.
(٢) انظر كتابه: ابن تيمية ص ٢٧.

نفر من أصحابه ومن الحجارين، حيث أمرهم بإزالة صخرة كانت تزار، وتنذر لها النذور بنهر (فلوط)، وعنها قال ابن كثير: (فقطعها - يعني ابن تيمية - وأراح الله المسلمين منها ومن الشرك).

وفي أوائل شهر محرم سنة ٧٠٥هـ نراه يشارك أيضا في الحملة ضد فئات منحرفة تنكرت لبعض تعاليم الإسلام، ببلاد الجرد، والرفض، والتيامنة، وقد لحق به نائب السلطنة جمال الدين الأقرم في جنده المسلمين، فحاربوهم حتى أعلنوا الطاعة وأنابوا إلى الهدى[1].

وهكذا لو تتبعنا مواقفه الجريئة، وحماسته للذود عن حياض الإسلام، لوجدناها بكثرتها تنبئ عن مواقف مشرفة في الدفاع عن حمى الإسلام من أن يتطاول عليه أحد، ويبرز منها ردود وافية على أصحاب المعتقدات المتطرفة، وأتباع المذاهب المخالفة لحقيقة الإسلام، وما تنطوي عليه شريعة هذا الدين، مما جعل له خصومًا كثيرين، سواء من العامة أو من العلماء والفقهاء على اختلافهم، حيث كان ينقض ادعاءاتهم المريبة، ويعري مخالفاتهم لأصول الدين، ويرد بآراء قوية، لم يجرؤ مثله بالتصريح بها. وقد صدق الإمام مالك - رحمه الله - في قوله: (ما منا إلا راد ومردود عليه).

ما تعرض له من بلاء:

لا شك أن هذه الشجاعة والجرأة في الحق، مع الحرص على التصدي لأمور كثيرة تفشت في البيئة الإسلامية، نتيجة الجهل والبعد عن المنهج السليم، الذي جاء به رسول الله ﷺ من ربه، وتلقفه عنه أصحابه لينشروه في الآفاق، وعنهم أخذ السلف الصالح جيلا بعد جيل، هذا في بعض الجوانب المتعلقة بما أدخل على الدين نتيجة التقليد، والاستسلام لرغبات النفس، والانقياد للعلماء الذين يفتون بغير ما أنزل الله، حيث كان يخشاهم رسول الله ﷺ على أمته، هذه

(١) الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ، ص ٢٧.

الشجاعة والجرأة في الحق ما هي إلا هبة من الله لابن تيمية تبوأها بالصدق مع الله والنية المخلصة.

ولهذا فهو ينتصر على خصومه، ويظهره الله على كيد أعدائه، ثم يقابل أعمالهم بالصبر وقوة الاحتمال، فإذا قدر عفا وصفح، وقد حاول أعداؤه مرارا النيل منه، بل القضاء على حياته، ولكن حينما تمكن منهم عفا عنهم وقال: أما أنا فهم في حل من حقي، ومن جهتي، وكان القاضي زين الدين بن مخلوف - قاضي المالكية - يقول بعد ذلك: (ما رأينا أتقى من ابن تيمية، إذ لم نبق ممكنا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا) [1].

ولقد حبس عدة مرات بسبب مكائد الخصوم، ووشي به إلى السلاطين لعله يقتل، لكن الله سبحانه ينجيه؛ لأن من حفظ الله حفظه، ومن كان مؤمنا حقا استحق دفاع الله عنه.

ودعي للمناظرات والخصومات عن ردوده على أصحاب الفرق والبدع، يقول تلميذه البزاز: (ولقد سجن أزمانا وأعصارا وسنين وشهورا، ولم يولهم - أي: المسيئين إليه والمخاصمين له - دبره فرارًا، ولقد قصد أعداؤه الفتك به مرارًا، وأوسعوا حيلهم عليه إعلانًا وإسرارًا، فجعل الله يحفظه منهم شعارًا ودثارًا، ولقد ظنوا أن في حبسه مشينة، فجعله الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه واده في حياته أقر به عينيه [2]، فإن الله تعالى؛ لعلمه بقرب أجله، ألبسه في الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حلله، كونه حبس على غير جريرة ولا جريمة، بل على قوة في الحق وعزيمة، هذا مع ما نشر الله له من علومه في الآفاق، وبهر بفنونه البصائر والأحداق، وملأ بمحاسن مؤلفاته الصحف والأوراق، كبتا ورغما للأعداء، أهل البدع

(١) السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية، للدكتور عبد الرحمن الفريوائي، ص ١٧.

(٢) يذكر هذا الموقف بقول الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - لما قيل له عن كثرة خصومه والمخالفين له قال: موعدهم يوم الجنائز.

المضلة والأهواء) [1].

وهذا الكلام المجمل من تلميذ عاصر أستاذه، وعرف ما حصل له، وكأنه يريد بذلك ما حصل له من منع عن الفتوى، ومن سجن في القاهرة، ثم سجن في الإسكندرية، ثم سجن في دمشق حتى توفي وهو في هذا السجن الأخير. إذ أن من يختلف معه رحمه الله في أي أمر يطرحه، يلجأ إلى حيلة العاجز بالإيقاع به، والخوض في عرضه، والافتراء عليه، حتى توغر الصدور عليه، وتأمر السلطة بسجنه.

١ - ففي عام ٧١٨هـ كان من ضمن ما تحدث فيه فتواه في الحلف بالطلاق، واعتبره معاصروه أمرا خطيرا؛ إذ إن هذه المسألة الفقهية لم تثر إلا في زمنه، إذ إنه أفتى بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة رجعية، وبعدم وقوع الطلاق بالحلف به إذا حنث، وأن على الحالف أداء كفارة اليمين فقط، إذا كان لا يقصد إيقاع الطلاق، وإنما هدفه اليمين، فثار عليه القوم آنذاك، وأقيمت عليه الدعاوى حتى اضطر الحاكم إلى إصدار أمر بمنع الشيخ ابن تيمية من الفتوى بعدم وقوع الطلاق، وإلى المناداة بهذا في الأسواق العامة؛ ليعرفه الناس، ويحذروا من الوقوع في شره - كما اعتقدوا - ولكنه رحمه الله؛ لقوة إرادته وإيمانه كان يقول: (لا يسعني كتمان العلم)، فصار يجاهر برأيه، ويجيب على من يستفتيه، مما سبب له السجن في دمشق قرابة نصف عام[2] فهو يخشى أن يلجم بلجام من نار، كما جاء الوعيد من رسول الله ﷺ لمن سئل عن علم فكتمه.

٢ - وبعد خروجه من السجن أثار عليه خصومه مسألة أخرى في موضوع: (شد الرحال)، مع أن الرأي الذي يقول به هو قول الإمام مالك، أن السفر إلى أضرحة الأولياء غير مشروع، بل وفيه معصية،

(١) الأعلام العلية، ص٦٨.

(٢) كتاب ابن تيمية، لعبد السلام حافظ ص ١٠٨.

أخذًا من الحديث الشريف المتفق على صحته: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا**» [(١)]، يعني: المسجد النبوي، وقد ضمن آراءه في هذا كتابه: (الجواب الباهر في زوار المقابر)، وفي كتابه الآخر: الرد على الأخنائي، وهو: (استحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية)، مستدلا بما جاء عن الله وعن رسوله، وبما أفتى به صحابة رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم من سلف الأمة، فما زال خصومه بالسلطان حتى سجنه في عام ٧٢٦ هـ في قلعة دمشق، ومعه شقيقه زين العابدين عبد الرحمن، وسجن معه فريق من أصحابه العلماء، وعزروا بعض الوقت، وفيهم تلميذه النابغة ابن قيم الجوزية، الذي بقي في السجن مدة طويلة بينما جرى إطلاق الآخرين [(٢)].

٣ - وقد امتحن رحمه الله بمحن أخرى وخاض فيه أقوام، ونسبوه للبدع والتجسيم، وهو من ذلك بريء، بل كان يحارب البدع ويشدد النكير على أهلها، وكان أول محنة في ذلك له في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨هـ بسبب عقيدته الحموية الكبرى، وهي جواب سؤال ورده من حماة، فوضعها ما بين الظهر والعصر في ست كراريس، فجرى له بسبب تأليفها أمور ومحن، حيث رجح مذهب السلف على مذهب المتكلمين، وشنع عليهم، وقد توسع في بيان ما حصل له: الشيخ مرعي ابن يوسف الكرمي الحنبلي [(٣)].

٤ - ولما سكنت فتنة الحموية، وبعدها بمدة طويلة ظهر الشيخ نصر المنبجي بمصر، واستولى على أرباب الدولة القاهرة، وشاع أمره وانتشر، فقيل لابن تيمية: إنه اتحادي، وأنه ينصر مذهب ابن العربي، وابن سبعين، فكتب إليه نحو ثلاثمائة سطر ينكر عليه، فتكلم نصر

(١) صحيح البخاري، كتاب: الصوم (١٨٩٣)، سنن ابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤١٠).

(٢) الإمام ابن تيمية، لعبد السلام حافظ ص ١١١، ١١٢.

(٣) راجع (الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية) ص ١٠٢ - ١١٤.

المنبجي مع قضاة مصر في أمره، وقال: (هذا مبتدع وأخاف على الناس من شره)، فعقد للشيخ ابن تيمية في رجب عام ٧٠٥هـ مجلس وسئل عن عقيدته، فقدم لهم: (الواسطية)، وقال: (هذه كتبتها من نحو سبع سنين قبل مجيء التتار إلى الشام)، ثم دعي لمصر وعقد له مجلس مناظرة، وعقد له مجلس ثالث بالقصر، وبعد أن أوذي، أبرئت ساحته[١].

٥ - وتآلب عليه خصومه في مصر، بعدما وصلها في رمضان عام ٧٠٥هـ حيث جمع له القضاة وأكابر الدولة بالقلعة، وادعى عليه عند القاضي ابن مخلوف المالكي خصم بأنه يقول: إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت، وزاد الحافظ الذهبي: وأن الله يشار إليه الإشارة الحسية، وطلب عقوبته على ذلك... وقد حبس على ذلك في الجب ثمانية عشر شهرا، وقد ذكر الشيخ مرعي تفاصيل ذلك [٢]، وكان مما قاله: (سبب محنته وابتلائه: قيامه في الله، والرد على أهل البدع والعقائد الفاسدة، ومبالغته في الرد على الفقراء الصوفية - الأحمدية والرفاعية - بسبب خروجهم عن الشريعة) [٣].

ومن يقرأ ما كتبه ابن تيمية يرى أن قوله في الاستواء بمثل ما قال إمام دار الهجرة مالك رحمه الله: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).

٦ - وفي شوال عام ٧٠٧هـ شكا شيخ الصوفية بالقاهرة - كريم الدين الآملي وابن عطاء وجماعة نحو الخمسمائة - من الشيخ تقي الدين ورأيه في ابن عربي وغيره إلى الدولة، فخيروه بين الإقامة

(١) انظر: (الكواكب الدرية) للشيخ مرعي بن يوسف الذي توسع في تفاصيل هذه المحنة ص ١١٢ - ١١٦.
(٢) الكواكب الدرية ص ١٢٦ - ١٣٣.
(٣) الكواكب الدرية ص ١٢٦.

بدمشق أو الإسكندرية بشروط، أو الحبس، فاختار الحبس، وقال: أنا أمضي إلى الحبس، وأتبع ما تقتضيه المصلحة.

ولما دخل الحبس، وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب، يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد، مع تضييع الصلوات، فأنكر الشيخ ذلك عليهم، وأمرهم بملازمة الصلاة، والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة، والتسبيح والاستغفار والدعاء، وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه، ورغبهم في أعمال الخير، وحضهم على ذلك، حتى صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيرا من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس.

وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه، حتى كان السجن يمتلئ منهم.

واستقر الشيخ في الحبس يستفتى، ويقصده الناس ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشكلة من الأمراء والأعيان. فلما كثر اجتماع الناس به، وترددهم إليه ساء ذلك أعداءه وحصرت صدورهم، فسألوا نقله إلى الإسكندرية، فنقل [1].

إلى غير ذلك من المواقف التي كانت له من أعدائه، وهو صابر محتسب، حيث روي له قوله: (ماذا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة) [2]، لأنما يغيضهم يسره، ولأنه رحمه الله كالغيث أينما حل نفع.

ثناء العلماء عليه:

تبين منزلة العالم بمكانته عند الخاصة والعامة، فالخاصة وهم العلماء لا يحكمون عليه إلا بعد تمحيص علمه، وإدراك فضله في المأخذ العلمي، وطريقة الطرح والاستدلال؛ إذا لا شك أن كل طالب

(١) الكواكب الدرية، ص١٣٣ - ١٣٥.
(٢) الإمام ابن تيمية، ص ١١٣.

علم له قادح ومادح.

فالقادحون تمحص آراؤهم بطريقة النقد، فإن لم تستند على المقياس الأساسي، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهي آراء مجروحة، ورغبات صادرة عن هوى، وما بني على باطل فهو باطل.

أما المادحون فينظر في مكانتهم وثقلهم العلمي؛ لأن من رفعة مكانة

الممدوح ثناء ذوي الفضل والمكانة عليه، وهو العلماء والمعتد بعلمهم، المعروفون بالفضل والعدالة وحصافة الرأي.

وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - اتفق أهل العلم المرموقون من معاصريه، ومن جاء بعدهم، على فضله وإمامته، وأنه يستحق التسمية بشيخ الإسلام، لما منحه الله من تفوق علمي، وفضل وزهد وورع، إلى جانب حسن الخلق والحلم والمقدرة على التحمل، فقد أسبغ الله عليه نعما كثيرة، هي من الله فضل، وهي للشيخ لباس يتجمل به، وحلية تزين ما بين جنبيه من علم، وسعة اطلاع في معارف عديدة.

والمتتبع لكتب التراجم والسير، لا يحصي كثرة من أثنى على هذا الإمام عرفانا بمكانته في العلم الذي جمله الله به.

وقد اتفق علماء الإسلام على تسميته شيخ الإسلام، حيث تصدى ابن ناصر الدين الدمشقي - في كتابه: (الرد الوافر على من زعم: بأن من سمى ابن تيمية " شيخ الإسلام " كافر) - لمن قال بهذا القول، أثبت أن ما يقرب من (٨٨) عالمًا من أئمة الإسلام لقبوا ابن تيمية بشيخ الإسلام. وهذا شبه إجماع، والأمة لا تجتمع على ضلالة، ومن أولئك العلماء العلامة أبو عبد الله محمد بن الصفي عثمان الحريري الأنصاري الحنفي، قاضي القضاة في مصر والشام، الذي

قال: (إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟) [1].

كما أثنى عليه خلق كثير من العلماء عاصره بعضهم، وأطنبوا في هذا الثناء تقديرًا لمكانته، وعرفانًا بما منحه الله من علم وفضل، وممن عاصره، وأعطاه ما يستحقه من المنزلة العلمية والتبحر في العلوم والعقائد:

١ - ابن دقيق العيد المتوفى عام ٧٠٢هـ.

٢ - إبراهيم بن أحمد الرقي المتوفى عام ٧٠٣ هـ.

٣ - أحمد بن إبراهيم الواسطي المتوفى ٧١١هـ.

٤ - إسحاق بن أبي بكر بن ألمى التركي المتوفى في حدود عام ٧٣٠هـ.

٥ - قاضي القضاة ابن الزملكاني الشافعي المتوفى عام ٧٢٧هـ.

٦ - قاضي قضاة مصر والشام محمد بن عثمان الحريري الأنصاري الحنفي المتوفى عام ٧٢٨هـ.

وهؤلاء الستة ماتوا قبل وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية، أما من عاصره وتوفي بعده فمنهم:

٧ - ابن سيد الناس اليعمري المصري المتوفى عام ٧٣٤هـ.

٨ - الإمام الحافظ أبو محمد البرزالي الشافعي المتوفى عام ٧٣٨هـ.

٩ - جمال الدين المزي المتوفى عام ٧٤٢هـ.

١٠ - الإمام الحافظ شمس الدين ابن عبد الهادي بن قدامة المقدسي المتوفى عام ٧٤٤هـ.

١١ - شيخ النحاة محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الشافعي المتوفى عام ٧٤٥هـ.

---

(١) الرد الوافر، ص ١٠٢.

١٢ - الحافظ الناقد شمس الدين الذهبي المتوفى عام ٧٤٨هـ.

١٣ - الإمام عمر بن مظفر الوردي الشافعي المتوفى عام ٧٤٩هـ.

١٤ - الإمام أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الشافعي المتوفى عام ٧٤٩هـ.

١٥ - الإمام الحافظ أبو حفص عمر بن على البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ.

١٦ - الإمام المحدث المؤرخ ابن كثير المتوفى عام ٧٧٤ هـ.

وغير هؤلاء من أفاضل العلماء إلى جانب القصائد التي قيلت في رثائه بعد وفاته، وأجوبة من علماء بغداد والبصرة، وعلماء الشافعية والمالكية والأحناف في الانتصار له رحمه الله فيما حصل له من امتحان في المسائل التي نوقش فيها، والتي أثيرت ضده وبشأنها شبه، حيث استعيدت من أجلها السلطة [١].

وقد أجمل أسماء أصحاب الشيخ وأعوانه ومحبيه الحافظ أبو حفص عمر بن على البزار في كتابه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) بـ ٣٤ عالمًا، وفندهم واحدًا واحدًا، بأسمائهم وتراجمهم، أما أعداؤه والمعترضون عليه فهم اثنا عشر فردًا فقط [٢].

ومن هذه المقارنة يتضح أن أنصاره والعارفين بجلال قدره أضعاف المعترضين عليه. وهذا وحده كافٍ في إبراز مكانة هذا الشيخ الجليل، والانتصار له على خصومه، الذين تضاءلت دعاواهم عليه رحمه الله، مع سعة علمه، وقوة حجته، ونصرته لدين الله، ومن

(١) من يريد تفاصيل الذب عن الشيخ وما قاله العلماء عنه فلينظر الكواكب الدرية ص ٥٥ - ٧٦، وص ١٥٩ - ٢٣٢، والدرر الكامنة، - والأعلام العلية، والسيرة العلمية لابن تيمية للدكتور عبد الرحمن الفريوائي الذي اهتم بدراسة وتتبع أحوال ابن تيمية.

(٢) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٧٩ - ٨٧.

كان مع الله كان الله معه، وصدق في تسليته لنبيه ﷺ:{ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧} [النحل: ١٢٧]،{ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨} [النحل: ١٢٨].

ومع الأيام والاهتمام بمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية: دراسة وتتبعًا تبرز دراسات ومتابعات لحياة هذا العالم الفذ، وآخر ما وقع في يدي عن شيخ الإسلام - وإن كان في كل يوم يظهر عنه شيء جديد - كتاب للدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي الذي نشرته الجامعة الإسلامية في بنارس الهند، بعد الاهتمام بهذا الشيخ في ندوة علمية كبيرة بهذه الجامعة عن ابن تيمية.

هذا الكتاب عن السيرة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ويقع في ٢٢٣ صفحة من القطع المتوسط، جاء من اهتمام المؤلف بابن تيمية، حيث كان الجانب الحديثي في سيرته واهتمامه بأحاديث رسول الله ﷺ، هو موضوع رسالة الدكتور عبد الرحمن العلمية، مما جعله يهتم به، ويتابع ما نشر عنه في عدة لغات عالمية.

وقائع في حياته:

رغم أن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كلها عمل وجهاد، وطلب للعلم، وتأليف فيه وتعليم للناس، وفتيا ودفاع عن حوزة الإسلام.. إلا أن المهتمين بسيرة الشيخ قد رصدوا بعض الحوادث الكبرى في حياته رحمه الله، مقرونة بالتاريخ، وكان من المهتمين بذلك تلميذه: الحافظ البزار المتوفى عام ٧٤٩هـ في كتابه: (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية)، كما اهتم بها غيره من محبيه وتلامذته، ورصد أغلبها ابن كثير في تاريخه: (البداية والنهاية) حسب حوادث السنين، حيث ظهر من أغلبها ما امتحن به الشيخ وما تحمله في هذا السبيل، حرصا على تصحيح العقائد، وإبانة لما أوجب الله في تبليغ العلم، والدفاع عن دين الله، والحماية لجناب التوحيد الذي هو الأصل الأصيل، وخشية من

الإطالة في سرد الحوادث نجتزئ بعضا من الحوادث الكبرى في حياة ابن تيمية - رحمه الله:

١ - في عام ٦٨٣هـ وفي الثاني من محرم: أول درس يلقيه ابن تيمية بدار الحديث السكرية بالقصاعين، خلفًا لأبيه الذي توفي عام ٦٨٢هـ في انسلاخ ذي الحجة، وقد حضر درسه قاضي القضاة بهاء الدين ابن الزكي الشافعي والشيخ تاج الدين الفزاري، وزين الدين ابن المرحل، والشيخ زين الدين ابن المنجا، وكان درسا هائلا، وقد كتبه: تاج الدين الفزاري بخطه لكثرة فوائده، وكان عمر الشيخ إذ ذاك عشرين سنة وسنتين، ثم جلس في عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيئ له لتفسير القرآن العزيز، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير، والجم الغفير [١].

٢ - في عام ٦٩٢هـ يحج الشيخ، وفي عام ٦٩٣هـ يطلب نائب السلطان عز الدين أيبك الشيخ ابن تيمية، وزين الدين الفارقي شيخ دار الحديث، ويضربهما ويرسم عليهما بالعذراوية بسبب حادثة عساف النصراني، ثم يطلقهما [٢].

٣ - وفي عام ٦٩٤ هـ يأذن الإمام شرف الدين أحمد المقدسي لابن تيمية بالإفتاء، وكان يفتخر بذلك ويقول: (أنا أذنت لابن تيمية بالإفتاء)[٣].

وفي عام ٦٩٥هـ في ١٧ شعبان يدرس ابن تيمية في المدرسة الحنبلية

عوضًا عن الشيخ زين الدين المنجا المتوفى، وقد بقي يدرس فيها إلى عام ٧٢٦هـ.

---

(١) البداية والنهاية، ١٣ / ٣٠٣.

(٢) البداية والنهاية، ١٣ / ٣٣٣ - ٣٣٦.

(٣) البداية والنهاية، ١٣ / ٣٤١.

٥ - وفي عام ٦٩٨هـ محنة ابن تيمية بسبب العقيدة الحموية [١].

٦ - عام ٦٩٩هـ يتوجه الشيخ للقاء قازان عند النبك مع أعيان دمشق؛ لأن قازان جاء للشام، وتمت بينه وبين الجيش المصري وقفة في وادي الخزندار عند سلمية حيث انكسر الجيش المصري أمامه، ثم يتوجه الشيخ مصاحبا الحملة التي هيئت لقتال بعض المنحرفين عن الدين في جبال الكسروان فينتصرون عليهم [٢].

٧ - عام ٧٠٠هـ ذهاب الشيخ إلى مصر لحث السلطان على الجهاد ومعونته أهل دمشق. وفي عام ٧٠١ هـ يثور جماعة من الحسدة على الشيخ بدمشق، ويشكون أنه يقيم الحدود، ويعزر ويحلق رءوس الصبيان، فبين لهم خطأهم [٣].

٨ - وفي عام ٧٠٢هـ يزور الحساد كتابا على الشيخ، وعلى القاضي شمس الدين الحريري، وجماعة من الأمراء والخواص، أنهم يناصحون التتر ويكاتبونهم، ولكن الله يحق الحق، فيعرف نائب السلطنة أن الكتاب مكذوب، فيأمر بقطع يد كاتبه [٤].

٩ - في عام ٧٠٢هـ وقعة شقحب مع التتار، وخروج الشيخ إلى العسكر يحلف لهم: أنكم في هذه المعركة منصورون، ولما قيل له: قل: إن شاء الله، قال: أقولها تحقيقا لا تعليقا، فحقق الله لهم النصر، وعاد الشيخ وأصحابه إلى دمشق [٥].

١٠ - وفي عام ٧٠٤هـ يذهب الشيخ إلى مسجد النارنج بدمشق، ويأمر أصحابه ومعهم المختصون بقطع صخرة هناك بنهر قلوط تزار وينذر لها، فقطعها، للقضاء على الشرك بالله.

---

(١) البداية والنهاية، ١٤ / ٤.
(٢) البداية والنهاية، ١٤ / ٧ - ١٢.
(٣) البداية والنهاية، ١٤ / ١٦ - ١٩.
(٤) البداية والنهاية، ١٤ / ٢٢.
(٥) البداية والنهاية، ١٤ / ٢٣ - ٢٥.

- وفي نفس العام يحضر شيخا - كان يلبس دلقًا كبيرًا متسعًا جدًا - يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فيأمر بتقطيع الدلق، وحلق رأسه، وتقليم أظفاره، وحف شاربه المسبل على فمه، المخالف للسنة، ثم يستتيبه من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل [١].

- وفي نفس العام في شهر ذي الحجة يركب الشيخ ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين، فاستتابوا خلقا منهم، وألزموهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيدا منصورا [٢].

١١ - وفي عام ٧٠٥هـ يخرج الشيخ للغزاة، مع الجيش الشامي في بلاد الجرد والرفض والتيامنة، فنصروا عليهم.

- وفي نفس العام يشكو الفقراء الأحمدية - الصوفية - الشيخ إلى نائب السلطنة، طالبين رفع إمارته عنهم، وأن يسلم لهم حالهم، فأصر الشيخ على أن يدخلوا تحت الكتاب والسنة، وانتصر الشيخ عليهم بعد ثلاثة مجالس عقدت.

- وفي هذا العام يذهب الشيخ إلى السجن، ويخرج الحافظ المزي دون إذن القاضي.

وفي نفس السنة يذهب إلى القاهرة لمقابلة السلطان، حيث عقد مجلس له في القلعة، وسئل فيه عما ينسب إليه: (إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت)، ثم حبس ابن تيمية على أثر ذلك في الحبس المعروف بالجب.

- وفي نفس العام يقرأ في الجامع الأموي كتاب من السلطان، بالحط على الشيخ تقي الدين، ومخالفته في العقيدة، وأن ينادى بذلك في البلاد الشامية، وإلزام أهل مذهبه بمخالفته، وكذلك وقع بمصر [٣].

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٣، ٣٤.
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٣٥.
(٣) البداية والنهاية، ١٤ / ٣٥ - ٣٨.

١٢ - خروج الشيخ عام ٧٠٧هـ، من السجن بعد أن مكث فيه ١٨ شهرًا، وبقي في القاهرة فترة، ثم توجه منها إلى الإسكندرية سنة ٧٠٩هـ، ونزل في دار السلطان في بر فسيح منها، متسع الأكناف، فينوي المرابطة، ويبقى ثمانية أشهر.

- وفي نفس العام يطلبه السلطان الناصر، ويأتيه في القاهرة ليجتمع به، ويصلح ما بينه وبين القضاة المصريين والشاميين، ثم ينزل القاهرة، ويسكن بالقرب من مشهد الحسين [١].

١٣ - وفي عام ٧١٢هـ يخرج الشيخ من القاهرة بصحبة السلطان الناصر بنية الغزو، فلما تبين له عدم الغزو، توجه من غزة إلى القدس، وعاد إلى دمشق عن طريق عجلون وبلاد السواد وزرع، واستقر بها[٢].

١٤ - وفي عام ٧١٨هـ يجتمع قاضي القضاء شمس الدين بن مسلم بالشيخ، ويشير عليه بترك الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، فيجيبه إلى ما طلب، وفي نفس الوقت ورد كتاب من السلطان بمنع الشيخ من الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، وقد نودي به في دمشق[٣].

١٥ - لكن الشيخ في عام ٧٢٠هـ عاد للإفتاء بمسألة الطلاق فاعتقل بقلعة دمشق، إلا أنه بعد أشهر قليلة، وفي عام ٧٢١هـ أفرج عنه يوم عاشوراء فخرج من القلعة، وكانت مدة اعتقاله خمسة أشهر، وثمانية عشر يوما [٤].

١٦ - وفي عام ٧٢٦هـ وفي النصف الأخير من شعبان أعيد اعتقال ابن تيمية بقلعة دمشق ومنع من الفتيا، وكان ذلك بسبب فتواه

(١) البداية والنهاية، ١٤ / ٤٥ - ٥٣.
(٢) البداية والنهاية، ١٤ / ٦٧.
(٣) البداية والنهاية، ١٤ / ٨٧.
(٤) البداية والنهاية، ١٤ / ٩٧، ٩٨.

في السفر وإعمال المطي إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين.

- وقد بقي في السجن حتى عام ٧٢٨هـ حيث أخرج في جمادى الآخرة ما كان عند الشيخ من الكتب، والأوراق، والدواة، والقلم، ومنع من الكتب والمطالعة، وحملت كتبه في مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة، وكانت نحو ستين مجلدا، وأربع عشرة ربطة كراريس، فنظر القضاة والفقهاء فيها، وتفرقوها بينهم.

- وقد توفي في معتقله هذا في ليلة الاثنين، العشرين من ذي القعدة من نفس العام ٧٢٨هـ رحمه الله رحمة واسعة، ودفن بمقبرة الصوفية بدمشق [١]، وقد خرج في جنازته خلق كثير حتى أن المناوئين له خافوا على أنفسهم فلم يخرجوا من بيوتهم ذلك اليوم.

هذه بعض الوقائع في حياة الشيخ ابن تيمية، ومنها تبرز قوته في الحق، وإنكاره المنكر بكل ما يستطيع، وثباته في الدفاع عن العقيدة الصحيحة، التي دعا إليها رسول الله ﷺ، وسار عليها أصحابه من بعده، ثم التابعون لهم بإحسان، كما قال ﷺ: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ " [٢]، كما كان ابن تيمية - رحمه الله - في حرصه على التمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وما انتهجه الخلفاء الراشدون، ومن سار على دربهم واقتفى أثرهم، يحرص على تحذير الناس مما حذر منه رسول الله ﷺ :**«إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثه بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»** [٣].

إن القارئ لحياة شيخ الإسلام ابن تيمية ليجد في صفاته وأعماله نقاطا تحتاج إلى دراسة وافية، ومواقف تحتاج إلى إبانة؛ لأثرها في

---

(١) البداية والنهاية، ١٤ / ١٣٤ - ١٣٦، وانظر أيضا عن ذلك كله: (الأعلام العلية) للبزار ص ١١ - ١٥.

(٢) سنن أبي داود السنة (٤٦٠٧)، سنن الدارمي، المقدمة (٩٥).

(٣) سنن الترمذي العلم (٢٦٧٦)، سنن ابن ماجه، المقدمة (٤٢)، سنن الدارمي المقدمة (٩٥).

الدفاع عن الإسلام، حيث وقف رحمه الله كالعقبة الكأداء أمام السهام المشرعة، وكافح ضد الأقوال المغرضة، حتى حصحص الحق، وأظهر الله الحجة، فقد كان ابن تيمية واحدًا من المدافعين عن دين الله، وجعل الله في علمه نفعًا، وفي وقته بركة... وكانت كتبه دليلا على ذلك، تشهد بمواقفه على مر العصور، وكر الأيام والليالي.

ولئن عاش سبعة وستين عاما من عمره، فإنه قد أوقف نفسه وعلمه، ولسانه وجهده للدفاع عن دين الإسلام ضد البدع والأهواء والجهل، ومحاربة الملل والنحل، منذ جلس مكان والده للتدريس في عام ٦٨٣هـ حتى لقي ربه. حيث أمضى خمسة وأربعين عامًا في جهاد مستمر، ونضال ومكابدة: بالمناظرة والردود تارة، والمجاهدة والفتيا تارة أخرى، صابرا محتسبا..

ويندر من الرجال من يقوم بمثل ما قام به.. إذ مهما قيل عنه فإنه لن يوفى حقه، ورغم أن تلامذته وأنصاره على تتابع الأيام ومضي العصور يدفعون أقوال المغرضين التي تحاول أن تنال من الإسلام بالنيل من الرجال المدافعين عنه، وابن تيمية واحد منهم، فإن كل ما يظهر من كتبه وآثاره العلمية، ما هو إلا قذى في عيون أصحاب البدع والأهواء، وسهام موجهة لأصحاب الملل المنتمية للإسلام، وهي تخالف جوهره، وتدعو إلى طعن الإسلام في الصميم، في التجرؤ على العقيدة، والمساس بالأساس الذي حرص رسول الله ﷺ وهو يدعو قومه في مكة ثلاثة عشر عامًا على تأصيله في القلوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله، واهتم أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند الردة بمحاربة من لم يؤد حق هذه الشهادة.

فرحم الله ابن تيمية، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه[1].

* * *

(١) المصدر، مجلة البحوث، العدد ٤٤، ص ٢٦٩ وما بعدها.

الإمام ابن القيم

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام ابن القيم

هو الفقيه الأصولي: أبو عبد الله الشمس محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ).

نشأ في كنف والده، ودرس على عدد من أهل العلم بعدما حفظ القرآن وسمع حديث النبي ﷺ وتفقه بمذهب الحنابلة حتى برع فيه، وأفتى، وتفنن في علوم الإسلام، تفسيراً وحديثاً، وعقيدة وعربية، وسلوكاً، وفقهاً وطبًّا، وغير ذلك.

وقد نفعه الله كثيراً بشيخ لازمه وانتفع به، وهو: الشيخ أبو العباس تقي الدين أحمد ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ)، ونجاه الله من هلكة البدع والأهواء، فصاحبه ستة عشر عاماً حتى أضحى أبرز تلاميذه وأشهرهم، بعد أن كان سبباً في هدايته من مزالق المذاهب الفاسدة حيث يقول ابن القيم في ذلك نظماً:

يا قوم والله العظيم نصيحة ::: من مشفق وأخ لكم معوان
جربت هذا كله ووقعت في ::: تلك الشباك وكنت ذا طيران
حتى أتاح لي الإله بفضله ::: من ليس تجزيه يدي ولساني
حَبْرٌ أتى من أرض حران فيا ::: أهلاً بمن قد جاء من حران
فالله يجزيه الذي هو أهله ::: من جنة المأوى مع الرضوان
أخذت يداه يدي فسار ولم يرم ::: حتى أراني مطلع الإيمان
ورأيت أعلام المدينة حولها ::: نزل الهدى وعساكر القرآن
ورأيت آثاراً عظيماً شأنها ::: محجوبة عن زمرة العميان
ووردت رأس الماء أبيض صافياً ::: حصباؤه كلآلئ التيجان

وقد لازمه حضراً وسفراً وسجناً، حتى سجن معه في سجن القلعة بدمشق سنة (٧٢٦هـ) إلى وفاة شيخه سنة (٧٢٨هـ) حيث خرج بعدها.

ومع اشتغاله بالتعلم والتعليم فقد أخذ عنه العلم الجم الغفير من العلماء، لما رزقه الله من حسن الخلق ولين الجانب، وممن انتفع به:

١ - أخوه الزين عبد الرحمن بن القيم (ت ٧٦٩هـ).

٢ - وأبناؤه ومنهم البرهان إبراهيم بن محمد بن القيم وهو النحوي صاحب شرح الألفية، وابنه عبدالله وهو الحافظ الذكي.

٣ - والحافظ ابن عبد الهادي المقدسي الحنبلي.

٤ - ومنهم الحافظ الزين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي.

أما عبادته وعلمه:

فقد قيل: إنه ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه، وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة، وتأله، ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار، والافتقار إلى الله والانقياد له والانكسار بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك. ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله. وقد امتحن وأوذي مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدين - ابن تيمية - في المرة الأخيرة في القلعة، منفرداً عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ، وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم. وتصانيفه ممتلئة بذلك.

وحج مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يُتعجب منه.

ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وسمعت عليه قصيدته

النونية الطويلة في السنة وأشياء من تصانيفه وغيرها.

وله في الفنون العلمية - في علوم الإسلام - اليد الطولى. (انتهى كلام تلميذه الحافظ ابن رجب).

أما تصانيفه فكثيرة جدًّا في أنواع العلم، مع شدة محبته للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه واقتناء الكتب، حتى اقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره. وكتب بيده وبخطه ما لا يوصف شهرةً ونال من ذلك بعض مصنفات شيخه أبي العباس ابن تيمية.

ومن عيون ما كتب وألَّف:

١ - زاد المعاد في هدي خير العباد. وصفه ابن رجب بكونه في أربعة مجلدات خطية وهو كتاب عظيم جدًّا.

٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين. وصفه ابن رجب بكونه في ثلاثة مجلدات.

٣ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. وصفه ابن رجب بكونه في ثلاثة مجلدات.

٤ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. مجلدان.

٥ - تهذيب سنة أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته. مجلد.

٦ - مدارج السالكين في بيان منازل إياك نعبد وإياك نستعين. مجلدان، وهو كتاب جليل القدر.

ومن أهم مؤلفات ابن القيم:

١ - أبدية الجنة والنار = رسالة في أبدية الجنة والنار:

- وهو في الواقع قطعة من كتابه " حادي الأرواح ".

٢ - اجتماع الجيوش الإسلامية.

أسماء مؤلفات ابن القيم:

حرف الألف:

١ - إعلام الموقعين.

٢ - إغاثة اللهفان.

٣ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

٤ - أقسام الحيل ومراتبها.

٥ - أقسام القرآن.

٦ - أمثال القرآن وتفسيرها لابن القيم.

٧ - إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار.

حرف الباء(*)

١ - بدائع الفوائد.

٢ - بلوغ السؤل من أقضية.

٣ - " التبيان في أيمان القرآن " وهو " أقسام القرآن لابن القيم ".

٤ - تحفة المودود في أحكام المولود.

٥ - تفسير سورة الفلق لابن القيم.

٦ - تهذيب مختصر سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة لابن القيم.

حرف الجيم:

١ - جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام.

٢ - " الجواب الكافي " أو " الداء والدواء ".

حرف الحاء:

١ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

٢ - حادي الأرواح.

حرف الدال:

١ - الداء والدواء.

٢ - دلائل النبوة.

٣ - دواء القلوب:والظاهر أنه الداء والدواء.

حرف الراء:

١ - رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه.

٢ - الرسالة التبوكية.

٣ - رسالة في أبدية الجنة والنار.

٤ - رسالة في الإرشاد.

٥ - رسالة في تفسير قوله تعالى:{ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ} [سبأ: ٦] الآية.

٦ - رسالة في حق الشفعة.

٧ - رسالة في العمل بالخطوط.

٨ - رسالة في الفرق بين ذوق السماع وقراءة القرآن.

٩ - رسالة في قوله تعالى:{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ} [المائدة: ٢]:= الرسالة التبوكية:

١٠ - رفع اليدين في الصلاة:

١١ - الروحلابن القيم:

١٢ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين:

١٣ - " روضة العاشق ونزهة الوامق "، وهو روضة المحبين.

حرف الزاي:

١ - زاد المعاد في هدي خير العباد.

حرف السين:

١ - سفر الهجرتين وباب السعادتين = انظر طريق الهجرتين..

حرف الشين:

١ - شفاء العليل(١) في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

٢ - شرح الصلاة = الصلاة.

٣ - شرح منازل السائرين = مدارج السالكين في بيان منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

حرف الصاد:

١ - كتاب الصلاة.

٢ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

٣ - صيغ الصلوات على النبي ﷺ.

حرف الطاء:

١ - الطب النبوي.

٢ - الطرق الحكمية.

٣ - طريق الهجرتين ومفتاح السعادتين.

حرف العين:

١ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

حرف الغين:

١ - غزو الجيوش الإسلامية في الرد على المعطلة والجهمية. وانظر اجتماع الجيوش.

حرف الفاء:

١ - الفروسية.

٢ - فصل يتعلق بأسرار الصلاة.

حرف القاف:

١ - القصيدة الميمية = الميمية.

٢ - القطر الطيب من الكلم الطيب.

حرف الكاف:

١ - الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: النونية.
٢ - " الكلم الطيب والعمل الصالح " وهو " الوابل الصيب ".

حرف الميم:

١ - مجموع رقم ٤٧٦٧.
٢ - مجموع فوائد ومسائل متفرقة.
٣ - مجموع.
٤ - مختارات من إعلام الموقعين = إعلام الموقعين.
٥ - مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة.
٦ - مختصر هدي الرسول ﷺ = لابن القيم.
٧ - مختصر الهدي النبوي " زاد المعاد " للشيخ محمد بن عبدالوهاب.
٨ - مدارج السالكينشرح منازل السائرين.
٩ - معرفة أنواع علم الحديث...
١٠ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة.
١١ - معاني الأدوات والحروف.
١٢ - المنار المنيف في الحديث الضعيف.
١٣ - مناسك الحج.
١٤ - منتخب إغاثة اللهفان.
١٥ - من فتاوى النبي ﷺ في الحج.

حرف الهاء:

١ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.
٢ - هدي النبوي: زاد المعاد.

حرف الواو:

١ - الوابل الصيب = الكلم الطيب [١].

(١) الأثبات في مخطوطات الأئمة: شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم، والحافظ ابن

مِحَنُه وَوَفَاتُه:

لقد عاش ابن القَيِّم - رحمه الله - في مجتمع كان يسوده كثير من السلبيات والمفاسد الدينية والأخلاقية، وكان ابن القَيِّم - في ظل هذه الأوضاع السيئة - صاحب رسالة سامية، وأهداف نبيلة، ومبادئ إصلاحية يهدف من ورائها: إلى الرجوع بالناس إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة من التمسك بالكتاب والسنة، ونبذ البدع والخرافات والتقليد والتعصب.

لكن طريقه هذا الذي سار فيه لم يكن سهلاً ميسوراً، بل كان محفوفاً بالمشاقِّ، فنزلت به بسبب ذلك محن عديدة، وتعرَّض لإيذاء واضطهاد وفتن أثناء جهاده لنشر دعوته، وسعيه لإصلاح حال مجتمعه.

فلم يكن من السهل على هذا المجتمع الذي سيطرت عليه الأفكار الدخيلة، وسادته البدع المتوارثة، أن يستجيب لهذا المصلح المجاهد الذي بزغ نوره في هذا الظلام الحالك، وكيف يتم له ذلك ولهذه البدع حُرَّاسٌ وحماةٌ من أمراء البلاد وحُكَّامها، بل ومن بعض الْمُنْتَسِبين إلى العلم أنفسهم؟!

فقد كان الأمر صعباً إذاً، والمواجهة إلى أشدِّها، وظهر في الساحة أعداء لابن القَيِّم، يتربصون به الدوائر، ويحيكون ضده الدسائس والمؤامرات، كما فعلوا من قبل مع شيخه وأستاذه.

إنكاره شَدُّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل، ومحنته بسبب ذلك:

من البدع التي سادت المجتمع وقتئذ، وتقرب الناس بها إلى الله: بدعة شَدِّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل إبراهيم عليه السلام.

فقام ابن القَيِّم - رحمه الله - في وجه هذه البدعة منكراً لها، ومبيِّناً مخالفتها لسنة رسول الله ﷺ وهَدْيِه، فما كان من أعدائِه

رجب.

وشانئيه إلا أن قاموا ضِدَّه، وآذوه، ثم حُبِس بسبب ذلك.

قال الحافظ الذهبي: " وقد حبس مدة وأوذي لإنكاره شدَّ الرحل إلى قبر الخليل "[1].

والظاهر أن هذه هي المرة التي حبس فيها مع شيخه ابن تَيْمِيَّة رحمه الله؛ ذلك أنه في السادس عشر من شعبان سنة ٧٢٦هـ اعْتُقِل الشيخ ابن تَيْمِيَّة في قلعة دمشق، وذلك بسبب ما أفتى به من المنع من شد الرحل إلى قبور الأنبياء، وبعد ذلك بأيام " أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم... وعزَّرَ جماعة منهم على دواب ونودي عليهم، ثمَّ أطلقوا، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية؛ فإنه حُبِس بالقلعة، وسكتت القضية ".

ولعل في إطلاقهم كل رفاقه وإبقائه وحده في الحبس، ما يُبَيِّنُ لنا مدى الحِنْق الذي كان في نفوس أعدائه - من أهل البدع - ضده، ويبين لنا في الوقت نفسه، ما كان لابن القَيِّم من دور بارز، وتأثير بالغ في الناس آنذاك، مما جعل هؤلاء يخشونه على بدعهم، فرأوا أن يحجبوه في السجن.

ولكن شاء الله سبحانه أن يشاطر ابن القَيِّم شيخه محنته هذه، فَسُجن معه في القلعة، ولأجل التهمة نفسها، ولكنه كان (منفرداً عنه)[2].

ولقد كان للحاقدين على شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة وتلميذه ابن القَيِّم دورٌ قبيح في حبسهما، وتدبير الشر ضدهما، ذلك أنهم حرَّفوا فتوى ابن تَيْمِيَّة: بأنه يُحَرِّمُ زيارة قبور الأنبياء مطلقاً، ويعتبر ذلك معصية، مع أن الشيخ - وكذا تلميذه - " لم يمنع الزيارة الخالية عن شد الرحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك... ولا قال إنها معصية... ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ :«**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**». والله سبحانه لا يخفى عليه شيء ولا تخفى عليه خافية "[3].

---

(١) المعجم المختص، ص٢٩٦، البداية والنهاية، ١٢٨/١٤.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة، (٤٤٨/٢).

(٣) البداية والنهاية، (١٢٩/١٤).

ويَحكي المقريزي - رحمه الله - هذه الواقعة - مبيناً ملابساتها وظروفها - بأوسع من هذا، وأن ابن القَيِّم - رحمه الله - قد ضُرب في هذه المرة قبل أن يُحبس، فيقول: (وفي يوم الاثنين سادس شعبان - يعني سنة ٧٢٦هـ - حُبِس تقي الدين أحمد بن تيمية، ومعه أخوه زين الدين عبد الرحمن بقلعة دمشق. وضُرِب شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قَيِّم الجوزية، وشُهِّرَ به على حمار بدمشق.

وسبب ذلك: أن ابن قَيِّم الجوزية تكلم بالقدس في مسألة الشفاعة والتوسل بالأنبياء، وأنكر مجرد القصد للقبر الشريف دون قصد المسجد النبوي، فأنكر المقادسة عليه مسألة الزيارة، وكتبوا فيه إلى قاضي القضاة جلال الدين القزويني وغيره من قضاة دمشق.

وكان قد وقع من ابن تَيْمِيَّة كلام في مسألة الطلاق بالثلاث: (أنه لا يقع بلفظ واحد، فقام عليه فقهاء دمشق، فلما وصلت كتب الْمَقَادِسَة في ابن القَيِّم، كتبوا في ابن تَيْمِيَّة وصاحبه ابن القَيِّم إلى السلطان، فعرف شمس الدين الحريري - قاضي القضاة الحنفية بديار مصر - بذلك، فشَنَّع على ابن تَيْمِيَّة تشنيعاً فاحشاً، حتى كتب بحبسه، وضُرِبَ ابن القَيِّم)[1].

وقد ظل ابن القَيِّم محبوساً مدة، ولم يُفْرَج عنه إلا بعد وفاة شيخه بشهر؛ ذلك أن ابن تَيْمِيَّة قد توفي في محبسه بالقلعة في العشرين من ذي القعدة سنة (٧٢٨هـ)، (وفي يوم الثلاثاء عشرين ذي الحجة أُفرج عن الشيخ الإمام العالم العلامة أبي عبدالله شمس الدين ابن قَيِّم الجوزية)[2].

وقد امتحن ابن القَيِّم - رحمه الله - غير هذه المرة أيضاً:

فتواه بجواز السباق بغير مُحَلِّل ومحنته بسبب ذلك:

كان ابن القَيِّم - رحمه الله - يُفتي بجواز إجراء السباق بين الخيل بغير مُحَلِّل، وَصَنَّف في ذلك كتابه: (بيان الاستدلال على بطلان

(١) السلوك، (٢/١/٢٧٣).
(٢) البداية والنهاية، (١٤/١٤٥).

اشتراط محلل السباق والنضال) أو: (بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل)[1].

وقد أشار ابن حجر - رحمه الله - إلى محنته هذه، فقال: " وجرت له محن مع القضاة، منها: في ربيع الأول - يعني سنة ٧٤٦هـ - طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير مُحَلِّل، فأنكر عليه وآل الأمر إلى أنه رجع عما كان يُفتي به من ذلك " [2].

وحكى ابن كثير هذه الحادثة، ولكنه ذكر ما يفيد أن ابن القَيِّم كان يفتي في ذلك برأي شيخه، وصَنَّف هذا المصنف لنصرة رأي الشيخ، ثم صار يفتي به دون نسبته إلى شيخه، فظنوه قوله، فحصل له ما حصل، ثم (انفصل الحالُ على أن أظهر الشيخ شمس الدين... الموافقة للجمهور)[3].

قال الشيخ بكر أبو زيد: " وقضية الرجوع محل نظر، فلابد من تثبيت ذلك، وأرجو من الله تعالى أن يمنَّ على بما يدل على ذلك، نفياً أو إثباتاً " [4].

قلت: أما كتبه التي بين أيدينا، فليس فيها ما يدل على رجوعه، وبخاصة كتاب (الفروسية)، ولكن ابن كثير - رحمه الله - يحكي ما شاهده بنفسه من إظهاره الموافقة للجمهور، فهل أظهر ابن القَيِّم ذلك دفعاً للشر عن نفسه دون أن يرجع حقيقة عن رأيه؟ الله أعلم.

والذي يهمنا في هذه القضية: أن ابن القَيِّم - رحمه الله - قد امتحن من القضاة بسببها، وأوذي في سبيل ذلك.

فتواه في مسألة الطلاق الثلاث ومحنته بسبب ذلك:

وقد امتحن ابن القَيِّم مرة أخرى بسبب فتواه بأن الطلاق الثلاث

(١) انظر: مؤلفات ابن القَيِّم.
(٢) الدرر الكامنة: (٢٣/٤).
(٣) البداية والنهاية: (٢٢٧/١٤).
(٤) ابن قَيِّم الجوزية - حياته وآثاره: (ص٤٣).

بكلمة واحدة يقع طلقة واحدة، وهو اختيار شيخه ابن تَيْمِيَّة أيضاً.

ويشير ابن كثير - رحمه الله - إلى ما وقع له بسبب ذلك، فيقول: " وقد كان متصدياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وجرت بسببها فُصُولٌ يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره " [١].

ولم يبين لنا ابن كثير ما وقع له بسب ذلك، لكن الظاهر أنه لم يُحْبَس إلا في المرة التي كان فيها مع شيخه ابن تَيْمِيَّة، وذلك بسبب فتوى شد الرحل، وأما مسألة الطلاق، وكذا مسألة المحلل في السباق، فيظهر أنه جرت له بسببهما فتن ومحن مع القضاة فحسب، وأنه لم يُسجن بسبب ذلك، وقد ذكر الشيخ بكر أبو زيد أنه سُجن بسبب هذه الفتاوى كلها[٢].

ولم أر ما يدل على ذلك، ولعل كلام ابن رجب صريح في أنه لم يُحبس إلا في تلك المرة مع الشيخ، فقد قال: " وقد امتُحن وأُوذي مرات، وحُبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة في القلعة... " [٣].

ومما يؤكد - أيضاً - أن فتواه في مسألة الطلاق قد سببت له مشكلات مع القضاة، ما حكاه الحافظ ابن كثير - رحمه الله - من الصلح الذي تم بين السبكي وابن القَيِّم، فقد ذكر في أحداث سنة ٧٥٠هـ - قبل موت ابن القَيِّم بعام واحد - في السادس عشر من شهر جمادى الآخرة منها، أنه (حصل الصلح بين قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وبين الشيخ شمس الدين ابن قَيِّم الجوزية، على يدي الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب، في بستان قاضي القضاة، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق)[٤].

---

(١) البداية والنهاية: (١٤/٢٤٦ - ٢٤٧).
(٢) ابن قَيِّم الجوزية - حياته وآثاره: (ص٤٢).
(٣) ذيل طبقات الحنابلة: (٢/٤٤٨).
(٤) البداية والنهاية: (١٤/٢٤٤).

فالمقصود أنه - رحمه الله - ابتلي وأوذي وامتحن بسبب صدعه بالحق، وإعلانه رأيه وما يعتقده دون مجاملة أو خوف من أحد، فرحم الله ابن القَيِّم رحمة واسعة، وجزاه عما قَدَّم خير الجزاء.

٢ - وفاتُه:

وبعد هذه الحياة الحافلة بالجهاد المتصل لنشر منهج السلف، ومحاربة كثير من الانحرافات التي ابتدعها الخلف، وما لقيه من محن في سبيل ذلك، وبعد أن كَمُلَ له من العمر ستون سنة، توفي هذا الإمام العالم العلامة، وذلك في ليلة الخميس، ثالث عشر من شهر رجب، من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة (٧٥١هـ) وقت أذان العشاء[١].

ووقع عند ابن رجب: (ثالث عشرين رجب)[٢]. ولعله تصحيف طباعي، فتكون كلمة (من) تصحفت إلى (ين)؟ وذلك لاتفاق المصادر على ما قدمناه من أنه كان في ثالث عشر؛ ولأن ابن رجب من تلاميذ ابن القَيِّم المقَرَّبين، فيبعد أن يخفى عليه يوم وفاته.

ووقع في (البدر الطالع) [٣]أنه كان في (ثالث شهر رجب)، وهذا خطأ أيضاً.

وقد صُلِّيَ عليه - رحمه الله - من الغد عقب صلاة الظهر بالجامع الأموي، [٤] ثم بجامع جَرَّاح[٥].

ولأن ابن القَيِّم - رحمه الله - كان قائماً لله بالحق، صادقاً في النصح للخلق فقد " كانت جنازته حافلة رحمه الله، شهدها القضاة والأعيان والصالحون، من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على

(١) الوافي بالوفيات: (٢٧٢/٢)، البداية والنهاية: (٢٤٦/١٤)، والدرر الكامنة: (٢٣/٤).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة: (٤٥٠/٢).
(٣) (١٤٥/٢).
(٤) البداية والنهاية: (٢٤٦/١٤).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة: (٤٥٠/٢).

حمل نعشه " [1].

فقد شَيَّعَه - رحمه الله - خلق كثير[2]، وكانت جنازته مشهودة، وحافلة جدًّا [3].

نعم لقد كانت جنازته حافلة عامرة، شهدها كثير من الخلق، كما كانت جنازة شيخه رحمه الله، التي لم يتخلف عنها من أهل دمشق سوى ثلاثة نفر، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: " قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز ". كانت هذه جنازته - رحمه الله - مع ما كان له في قلوب الكثيرين من العداوات، ومع ما حِيَكَ ضده من المؤامرات.

وَدُفِنَ - رحمه الله - عند والدته بمقابر الباب الصغير.

وقد رُؤِيَتْ له بعد موته " منامات كثيرة حسنة ".

وكان هو - رحمه الله - " قد رأى قبل موته بمدة الشيخ تقي الدين - رحمه الله - في النوم، وسأله عن منزلته؟ فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر، ثم قال له: وأنت كدت تلحق بنا، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة رحمه الله ".

فَرَحِم الله ابن القَيِّم رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام وأهله خيراً، وأسكنه فسيح جناته، آمين [4].

* * *

(١) البداية والنهاية: (١٤/٢٤٧).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة: (٢/٤٥٠).
(٣) الرد الوافر: (ص٦٨). الدرر الكامنة: (٤/٢٣).
(٤) المصدر، كتاب ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة.